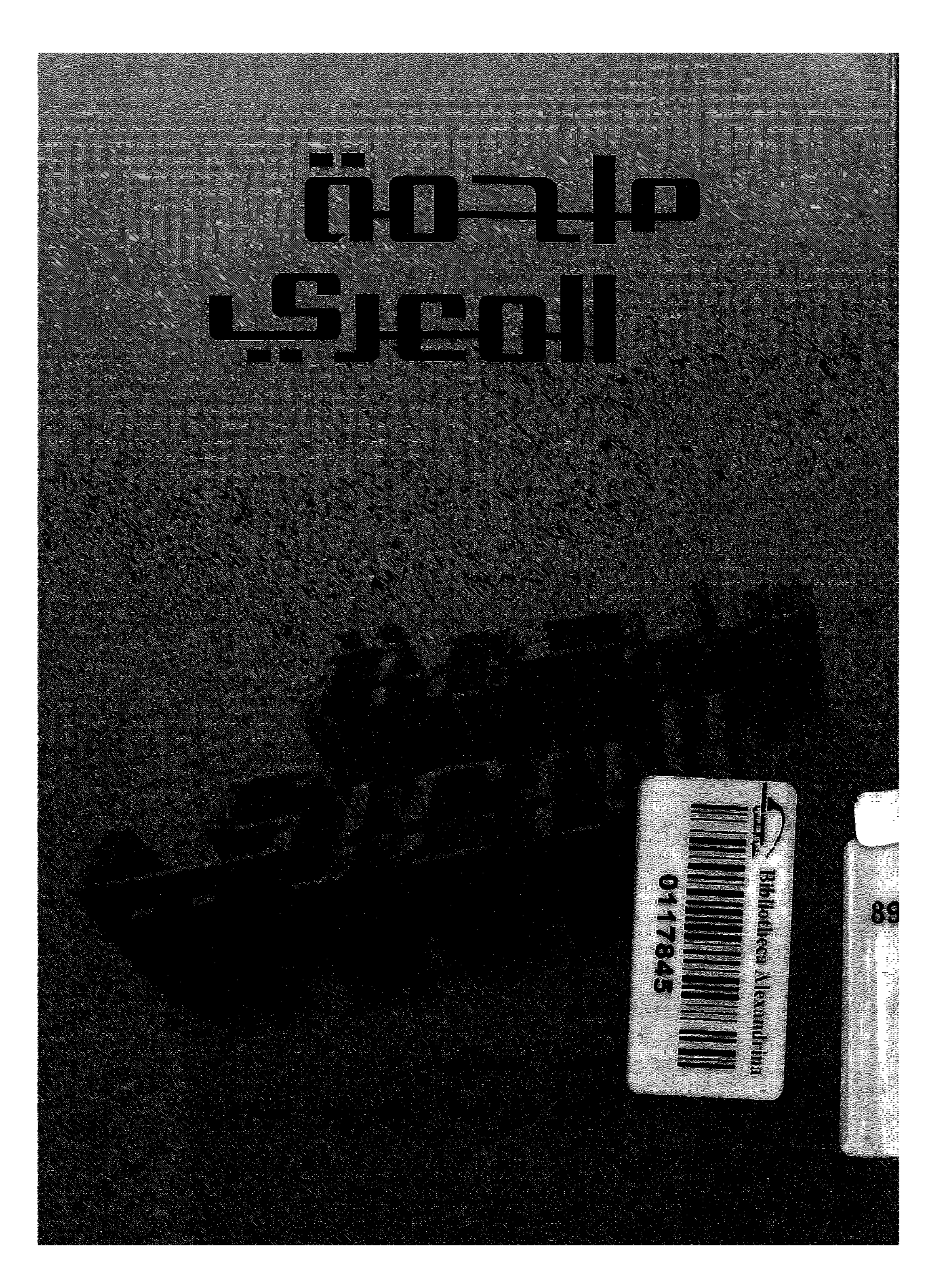
ملحمة المعري





ملحمة المعري

* سلسلة روائع الأدب الأرمني ـ 1

* ملحمة المعري

* اوبديك اسحاقيان

* ترجمة ودراسة: نظار ب. نظاريان

* الطبعة الثانية 1994

* الناشر:

* دار الحوار للنشر والتوزيع

اللاذقية ـ ص .ب 1018 ـ هاتف 422339 ـ سورية

* نادي الشبيبة الثورية اللجنة الثقافية

حلب ـ ص .ب. 3699 ـ سورية

* تصميم الغلاف: الفنان أردو هامبار تسوميان

سلسلة روائع الأدب الأرمني ـ 1

اويديك اسحاقيان

ملحمة المعري

ترجمة ودراسة :

نظار ب، نظاريان


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه السلسلة

بقلم الدكتور نعيم اليافي
استاذ الأدب الحديث في جامعة دمشق

الهدف من هذه السلسلة التي تعزم اللجنة الثقافية في نادي الشبيبة السورية في حلب اصدارها ـ هو تعريف القارئ العربي العادي بالثقافة الأرمنية في شتى تجلياتها الفكرية والأدبية والفنية، وتقديم أبرز أعلامها ونصوصها إليه بلغة ميسرة بليغة، تترك آثارها في النفس وفي العقل، وهو هدف نبيل يسعى أول مايسعى إلى تمتين الأواصر والعلاقات بين الأمتين العربية والأرمنية، وشدّ أزرها وتوثيقها في فضاء الغد الآتي، تماماً كما كانت عبر العصور وزيادة.

وفي رأيي أن تعريف شعب ما بثقافة شعب آخر هو مجرد خطوة أولى لابد أن تعقبها خطوات، فترجمة النصوص، وتقديم الأعلام من مفكرين ومبدعين ونقل آثارهم من لغة الى لغة عمل ضروري وهام، بيد أنه ـ ولاسيما بالنسبة الى أمتين عريقتين تلاقت ثقافتهما في الماضي

وتداخلت ـ غير كاف وحده، وأن علينا ـ دارسين وباحثين ـ من كلا الأصلين أن نسعى جادين الى الخطوة التالية، وهي اراءة المبادلات الثقافية والأدبية وسبل التأثر والتأثير بين المجالين المعرفيين، كيف كانت، وكيف ظهرت، وكيف يمكن تطويرها في المستقبل؟ وتلك لعمري أمنية وغاية نرنو إليهما ونهفو، ومن هنا أتطلع أنا كما يتطلع سواي إلى إبراز هذا الجانب الخطر في نظريات التلقي والتلاقي وهجرة النصوص، وقبولها، والعمل بجد ونشاط كي ننقله من مستوى الرغبة والوجود بالقوة إلى مستوى التحقق والوجود بالفعل.

لقد عرفت الثقافتان ـ في القديم كما في الحديث ـ قمماً شامخة في كل منهما ورجالات، برعوا في مختلف الصعد، عرفت مفكرين كباراً وأدباء عظام وفنانين مرموقين، شأن كل الثقافات والمجتمعات الإنسانية، ارتبطوا في ابداعاتهم بمصائر أممهم وتطلعاتها، وعبّروا عن همومها وقضاياها، أتراحها وأفراحها، وصوروا واقعها وواقع الإنسان في كل زمان ومكان، وخلّفوا في كل ذلك نصوصاً ونتاجات خلدتهم وخلدت امتهم على مر التاريخ، ومن واجبنا نحن أبناء الأمتين أن نحرص على احياء هذه الأوابد واعادة انتاجها بنشرها والحديث عنها، فلا أخلد من ماض يستمر حياً في الحاضر، ولا أروع من حاضر يستمد أصوله من الجذور ومن الهوية، هكذا تقف الأمم وتتسامق، عريقة في تراثها، مواكبة لعصرها، متطلعة نحو غدها المشرق.

ولعل مما يقوي هذه العلاقات بين الشعوب في المعارف والثقافات والآداب وجود ظواهر مشتركة يحضرني منها الآن هذا النتاج المهاجر عبر الأفق، وفي كل أنحاء الدنيا، لقد تناثر العرب كالنجوم مثلما تناثر

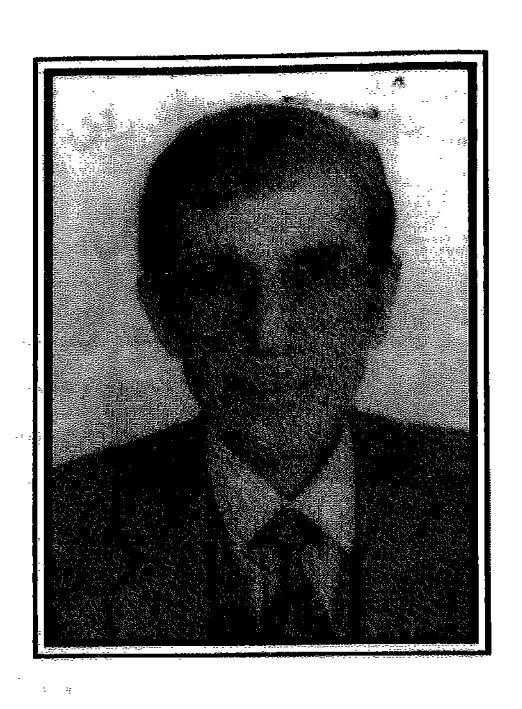
الأرمن تحت كل سماء وفي كل صقع، هاجروا إليه أو هُجّروا، وحملوا معهم في نزوحاتهم وطنهم أينما ذهبوا، وحيثما حلّوا، في الأمريكيتين، وفي أوروبة، في أوستراليا والشرق الأقصى، حتى في مجاهل أفريقيا، وقد أصبحت اليوم معالم، توزعت الجاليات العربية والأرمنية، تحمل ألقها وأرقها، وأبدعت هنا وهناك أدباً خاصاً بها وثقافة، يعبران عنها، أفراداً ومجتمعات، كما يعبّران عن المشاعر الإنسانية جمعاء.

ويثبت التاريخ كما يثبت الفكر أن التعددية الثقافية في إطار الوحدة الإنسانية هي الأفق المنشود أو الحلم الذي تطلّع إليه المفكرون والأدباء العظام والفلاسفة ويتطلعون، وإذا ظهرت عبر سيرورة التطور نزعات شوفينية متعصبة تخرج عن هذا التطلع لتؤكد التمايز بين الأمم وتفاضلها أو تفوقها بالعرق أو المنبت على حساب بعضها، فإنما هو انحراف وتجاوز منطق لاتسوغه شروط العقلانية ولاضرورات التعايش السلمي المقترح أو المفترض كأفق لإنسانية الإنسان، فلندعُ إلى التعددية دعوتنا إلى الديمقراطيات الثلاث.. السياسية والإجتماعية والسلوكية، ولنجاهر بمبادئنا في الحرية والعدالة والمساواة والسلام بين الشعوب قاطبة مجاهرتنا بمبادئنا في حق الأفراد والمجتمعات في آن ليعيشوا كما يشاؤون، وليختاروا حيواتهم، ويخطّوا لها فجاجها كما يريدون، فليس بعد اليوم من صياغة واحدة يدمغ بها، أو يقولب الجميع.

لقد عَرفتُ القضية الأرمنية مثلما عرفها المواطن العربي عبر فواجعها ونكباتها ومذابحها التي حلّت بالشعب وهو يدافع عن بقائه وحياته ووجوده، وكتبت في ذلك الكثير، وآن لنا ـ نحن العرب الآن وفي

المستقبل أن نعرف الأرمن من خلال إبداعاتهم ونتاجاتهم، وأن نقف عند قضاياهم عبر نصوصهم وكتاباتهم لنرى كيف يفكرون، وبماذا يحلمون، وإلام يتطلعون، وتلك هي المهمة الشاقة، الهامة والممتعة ـ التي نَدَبَتْ نفسها لها هذه السلسلة.

حلب في الأول من حزيران عام 1994



المترجم: نظار ب. نظاريان



نظار ب. نظاريان

حياته ونشاطه الأدبي

يعتبر الأديب والمترجم الراحل الأستاذ نظار ب. نظاريان من روّاد المترجمين من الأدب الأرمني إلى اللغة العربية وبالعكس. إذ كرّس حياته كلها لتعريف الشعبين الصديقين بأدب وفن بعضهما البعض، فترجم الكتب، وكتب القصص والمسرحيات، ودبّج المقالات والدراسات، وألقى المحاضرات، وكل ذلك من أجل التواصل بين هذين الشعبين، ومن أجل مدّ جسور الصداقة بين هاتين الحضارتين.

إنه الأديب والمترجم الأستاذ نظار ب. نظاريان، الذي رحل مبكراً، رحل قبل أن يتمم مشاريعه، رحل وهو في قمّة النضج الفكري والعطاء الأدبي.

حياته:

ولد نظاريان في بلدة كسب في سورية عام 1932 . تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في مدينة حلب، ثم سافر إلى دمشق وانتسب إلى كلية الحقوق في جامعة دمشق، وتخرج منها عام 1963 .

التحق بالجيش العربي السوري وخدم فيه، ثم عيّن مديراً للمركز الثقافي العربي في عين العرب، وعمل في دار الكتب الوطنية بحلب كأمين مساعد للدار. عمل فترة طويلة في التدريس، وكان له نشاط واسع في الأندية الثقافية الأرمنية في حلب.

في عام 1972 انتخب عضواً في مجلس مدينة حلب، وبقي فيه حتى وفاته، وكذلك أصبح عضواً في اتحاد الكتاب العرب عام 1980 وبقي فيه أيضاً إلى آخر عمره.

توفي في 25 تشرين الأول عام 1991 في مدينة حلب.

نشاطه الأدبي:

كان كثير الإنتاج والعطاء في مجال الترجمة والتأليف، وكان في الصف السادس الابتدائي عندما ترجم عدة مقاطع من كتاب «كليلة ودمنة» إلى اللغة الأرمنية، وفي عام 1952 طبعت أول قصة ترجمها إلى اللغة العربية في مجلة «الرواية» المصرية.

نشرت ترجماته وأعماله الإبداعية ودراساته باللغة العربية في مجلات وجرائد سورية وعربية عديدة، نذكر منها من المجلات السورية «الآداب الأجنبية» و «الحياة التشكيلية» و «المعرفة» و «الموقف الأدبي» و «النافذة» ومن الصحف «البعث » و «الثورة» و «تشرين» و «الجماهير» ومن المجلات والجرائد العربية نذكر «الفيصل» و «القبس» و «الفكر» و «المنبر» و «الرواية» و «الثقافة الوطنية» و «الأفق». كذلك نشر أعماله في مجلات أرمنية تصدر في سورية ولبنان نذكر منها «الثقافة» و «شيراك» و «أوشاكان» و « كيغارت».

طبعت له الكتب التالية:

1- أنشودة الخبز- ترجمة- شعر- طانييل واروجان، حلب، 1970.

2- ملحمة المعري - ترجمة - شعر - اويديك اسحاقيان، حلب، 1976.

3- القرن العشرون - ترجمة - شعر- كيفورك أمين، حلب 1979.

4- صلاة أمام عتبة الغد- ترجمة - شعر- واهان تكيان، حلب، 1979.

5- نصب لذكرى أمي وسِفر التكوين - ترجمة - شعر - هوانيس شيراز، حلب، 1981.

6- الجماهير المجنونة - ترجمة - شعر- يغيشه تشارنتس، حلب، 1983.

7- العجوز الذي نسي أن يموت - قصص - ترجمة - وارتكيس بدروسيان، دمشق، 1985.

8- سِفر الوقائع - ترجمة - رواية - سيرو خانزاديان، دمشق، 1990.

9- قصص أرمنية (الجزء الأول) - ترجمة - لمجموعة من الكتّاب، دمشق 1991.

10- الأبواب - تأليف - مسرحية، دمشق، 1993.

11- الرجل الأحزن - ترجمة - مسرحية - بيرج زيتونتسيان، الكويت، 1993. ضمن سلسلة «من المسرح العالمي».

وكان له، إلى جانب كل هذا، عدة كتب جاهزة للطبع أو قيد الإنجاز، أو أعمالاً كانت مطبوعة في المجلات وكان ينوي جمعها وطبعها في كتب، نذكر منها:

12- غيمة مبشرة- ترجمة - شعر (ملحمة هندية) - كاليطاسا، طبعت أولاً في مجلة «الآداب الأجنبية» ، دمشق، 1984.

13- التيودوسيا البابلية - ترجمة - شعر، طبعت أولاً في مجلة «الآداب الأجنبية»، دمشق، 1988.

14- أناباسيس - ترجمة - تاريخ - كسينيفون الآثيني.

15- سيكولوجية الأحلام (أو الإنسان من خلال أحلامه) - ترجمة - علم النفس، البيرت ناجاجيان.

16- الصّفعة - تأليف - مجموعة قصصية.

17- العلاقات العربية - الأرمنية عبر التاريخ (في السياسة والاقتصاد والثقافة) - دراسة. باشر بتأليفها بتكليف من اللجنة الثقافية لنادي الشبيبة السورية بحلب، ولكن وافته المنية وهو لم ينته بعد من تأليفها.

في عام 1994 طبع في دمشق كتاب تحت عنوان «نظار نظاريان - بطاقات عشق من بريفات إلى حلب »، وهو يحوي مختارات من أعماله الأدبية وكذلك شهادات الأدباء فيه. والكتاب من إعداد محمود علي السعيد وفريد نظاريان.

هذا ما أنجزه نظاريان في حياته، التي كانت حياة مليئة بالعطاء والنشاط والتضحية، خدمة للوطن والأدب.

رحمه الله.



اويريك اسحاقيان



كلمة...

في الربع الأخير من عام 1975 احتفلت الأوساط الأدبية الأرمنية في العالم عامة، وفي الاتحاد السوفياتي وأرمينيا خاصة، على الصعيدين الرسمي والشعبي، بالذكرى المئوية لمولد الشاعر الأرمني الكبير اويديك اسحاقيان. حيث ما زالت تطبع مجموعات مؤلفاته، وتترجم إلى معظم اللغات الحية في العالم. كما تخلد ذكراه على الطوابع البريدية، والميداليات، وتقام تماثيله في الساحات والحدائق العامة، وتدبّج المقالات والدراسات في أكثر الصحف والمجلات الأدبية بلغات مختلفة.

وبهذه المناسبة، أقدمت على ترجمة رائعة هذا الشاعر إلى لغة الضاد، وهي ملحمة المعري أو (أبو العلاء المعري)، كما سماها الشاعر. وأرجو المعذرة إذا سميت هذه القصيدة ب(ملحمة المعري) فلأنها ملحمة فكرية يصارع فيها المعري الظلم والاستبداد، ويكافح الفساد والرذيلة، ويسعى إلى إنسانية كاملة، لذا نراه يعرّي خبايا النفوس البشرية، فمن الصديق إلى الزوجة، ومن المرأة إلى صاحب السلطة والجاه... إلخ. ويرفض الزيف والخداع، يثور على الشر والمآسي، يفلسف الوجود بصوفية فيها أعلى المثل الإنسانية، ثم يتطلع

إلى شمس العدالة ويطير إليها، ليصل إلى نور اليقين والحق والإنسانية.

هذه الملحمة نوع جديد من الشعر الوجداني الفلسفي، يتماوج خلالها الفكر الصوفي بتشاؤمية حول مصير الإنسان، وعلاقات البشر، ويصل إلى تفجير ثورة عل كل ما هو غير إنساني، بغية البحث عن ناموس جديد للإنسان لتسطع شمس العدالة، ونور الحرية، والمساواة بعد الشك والقلق على مصير الإنسانية. ففي هذه الملحمة يتقمص اسحاقيان شخصية المعري – وما أقرب روح المعري إلى روحه – ويعبر عما عاناه من الآلام بسبب الظلم والطغيان، ويثور على الأنظمة القائمة، وعلى جور الإنسان لأخيه الإنسان، كما ثار المعري قبلاً، إلاّ أنها ثورة هادئة، ولكنها هادرة، ثورة خفية، ولكنها جلية الغاية واضحة المعالم.

لقد ترجمت هذه الملحمة، وأكثر أشعار اسحاقيان ونثره إلى معظم اللغات الحية في العالم نذكر منها.

الإيطالية سنة 1913، الألمانية سنة 1914و 1919، الروسية سنة 1916و 1956، الانكليزية سنة 1925و 1958، الاسبرانتو سنة 1926، اليابانية سنة 1928، الاسبانية سنة 1929، العبرية سنة 1927، الكرجية سنة 1931و 1963و 1968، التشيكية سنة 1946و 1966، الفرنسية سنة 1952و 1955، المجرية سنة 1964، البلغارية سنة 1967، السربية (اليوغسلافية) سنة 1967، الأوزبكية سنة 1975، الأذربيجانية سنة 1970، الأوكرانية سنة 1975، الفارسية سنة 1966، العربية سنة 1940و 1975، والرومانية والبولونية والمولدافية واليونانية وغيرها من لغات العالم.

أما الترجمة العربية فقد قام بها الأستاذان بارسيغ تشاتويان والمرحوم خير الدين الأسدي سنة 1940 ثم أعادا طبعها ثانية سنة 1952 منقحة، وسمياها بـ (عروج أبي العلاء). لاشك أن عملهما هذا كان جديراً بالشكر، إلا أن تلك الترجمة، تعد الآن مبتورةً ناقصة لأن اسحاقيان أدخل - فيما بعد- تعديلات هامة على الملحمة. ثم إن تلك الترجمة لم تراع فيها الدقة، إذ ضحى فيها المرحوم الأسدي الكثير من المعاني في سبيل الأسلوب المنمق، والبراعة اللغوية، كما جاء في مقدمة تلك الترجمة. كذلك ترجم السيد ميسروب بدروسيان إلى العربية بعض المقطوعات الشعرية من ديوان (أغنيات وجراح).

وإني أقدم لأول مرة للقارىء العربي هذه الترجمة الدقيقة، دون تصرف أو تحوير، باسلوب ميسر، قدر الإمكان، بعيدة كل البعد عن التعقيد معتمداً على آخر نص رسمي صدر عام 1975، ومعها دراسة متواضعة عن سيرة الشاعر، وأدبه وشعره، وما قيل عنه في الأوساط الأدبية العالمية. أليس القارىء العربي أولى من غيره في الإطلاع على ما كتب عن شاعره العظيم، المعري، الذي خلده اسحاقيان بهذه الملحمة الرائعة، وقدمه إلى الآداب العالمية بثوب شعري جديد. كما أن هذه الملحمة خلدت شاعرنا اسحاقيان، وأكبر دليل على ما نقول، ترجمتها إلى تلك اللغات العديدة التي ذكرناها.

لعلي قدمت هذه الترجمة باقة زهر على قبر اسحاقيان في ذكرى مولده المئوية، وفي تجديد ذكرى شاعرنا الإنساني الكبير أبي العلاء المعري .

1975 نظار .ب .نظاريان



الشاعر الغنائي اويديك اسحاقيان

كان الخريف يمس بأنامله السحرية أوراق الغابات، ليحيلها إلى شرائح من الذهب، تتناثر متهاديةً لتزين وجه الطبيعة بآخر ما عندها من الفتنة والسحر، في مدينة الكساندروبول (لينينا كان حالياً)(*) في أرمينيا، عندما ولد اويديك اسحاقيان، في 31 من شهر تشرين الأول عام 1875، من أب يملك مطحنة مائية في قرية قريبة من تلك المدينة، تدعى (غازاراباد)، والتي تدعى حالياً بقرية (اسحاقيان)، وبجانبها حديقة غناء يجري من تحتها نهر آخوريان. ففي هذه القرية قضى الشاعر عهد الطفولة، وهو يستمع إلى خرير المياه المتدفقة، ويستمتع بأغاريد البلابل الشادية، ويطرب لها، ليستفيق على زقزقة العصافير، ويغفو تحت أشجار السرو، يداعبها النسيم العليل بأحلام سحرية، ويبث ألحان الحنين، ولوعة الحب إلى الأرواح الهائمة على قمم الجبال، وأشجار الغابات المتهادية مثل الغواني الحسان.

درس مبادىء القراءة والكتابة على يد معلمة قاسية القلب، فظة الأخلاق، أذاقته طعم العصا، ومرارة الضرب، مما اضطر أهله لإرساله إلى مدرسة راقية في ذلك الحين بالنسبة لغيرها من المدارس في مسقط

* تسمى هذه المدينة الآن باسمها الأرمني القديم كومايري (الناشر).

رأسه. إلا أن تلك المدرسة لم تعش طويلاً، إذ أغلقت بأمر من القيصر، مع بقية المدارس الأرمنية حينذاك، لذا اضطر اسحاقيان للانتساب إلى مدرسة روسية عام 1885 حتى عام 1888 . ثم انتقل منها إلى أحد الأديرة، حيث تلقى تعليمه حتى عام 1889، وتخرج من الدير بعد أن تزود بمزيد من المعرفة الأدبية والفكرية، كما اطلع على مؤلفات كبار الأدباء والشعراء الأرمن، وتفجرت ينابيع الشعر في رحاب روحه الحساسة، فتدفقت على لسانه درراً ينظمها منذ عام 1887، وهو لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره. انتقل بعد ذلك إلى معهد كيفوركيان (في بلدة اجمبازين المركز الديني لجميع الأرمن) عام 1889، حيث أخذت شخصيته في النضوج والتكوين، بما اطلع على أعمال كبار الأدباء والشعراء من الأرمن والأجانب، بمساعدة أساتذته الذين توسموا فيه النبوغ المبكر، وشاعر المستقبل الموهوب. ويدفع حب استكمال الدراسة الجامعية بشاعرنا إلى السفر حتى فيينا، عام 1893، ونراه بعد ذلك في جامعة لايبزيغ بألمانيا يدرس الأدب والتاريخ، الفلسفة والمجتمع، وعلم الاتنوغرافيا، ويطلع، إلى جانب ذلك، على مؤلفات كبار الأدباء الاوربيين، ولا ينقطع خلاله عن مراسلة المجلات الأدبية الأرمنية بروائع الشعر والنثر. ولكن ظروفاً عائلية قاهرة تجبره عام 1895 للعودة إلى الوطن، ولا يكاد يستقر في مسقط رأسه حتى تعتقله الشرطة القيصرية، بتهمة القيام بنشاط هدّام ضد الحكم القيصري. يتذوق الشاعر مرارة السجن في قلعة مدينة يريفان سنة كاملة. والحق يقال، كان اسحاقيان؛ في ذلك الحين، يساند الحركات التحررية للفدائيين الأرمن ضد الحكم القيصري. في عام 1897 يطلق سراحه، ويعود إلى موطنه، حيث يصدر أول ديوان لمجموعة أشعاره بعنوان

(أغنيات وجراح). فيسطع نجم اسحاقيان في أوساط الشعراء، وتمس أشعاره الغنائية أوتار قلوب عامة الشعب، حتى يلقب بشاعر الشعب. لكن الشرطة القيصرية لا تزال تقف له بالمرصاد، وتعتقله ثانية عام 1898 بنفس التهمة، وتنفيه إلى مدينة أوديسا، لمدة سنة كاملة، حيث يتعرف الشاعر ببسطاء الناس، بالمعذبين المسحوقين، بالمناضلين العنيدين، أمثال بعض زملاء الثائر الإيطالي الشهير غاريبالدي، فيحادثهم حديث القلب عن الحرية والتحرر، ويبثون له عن معاناتهم وآمالهم، ويكتب اسحاقيان قصته الشهيرة (غاريبالدية). يقول الأديب الروسي الشهير نيقولاي تيخونوف في مقال له عام 1947 عن اسحاقيان في منفاه. (في سوق من أسواق أوديسا تقدم شحاذ من اسحاقيان يطلب الصدقة قائلاً – حسنة ياسيدي كرامة لحب مكسيم كوركي – لقد رسمت كلمات الشحاذ الدهشة في نفس الشاعر. لماذا لا يطلب هذا الشحاذ الحسنة كرامة لله؟. وعندما سأله الشاعر عن ذلك، أجابه الشحاذ: –إن مكسيم كوركي هو أول إنسان يكتب عن الحقيقة، عن حقيقة أوضاعنا نحن الفقراء.– لقد أثرت هذه الحادثة في نفس اسحاقيان أيما تأثير، حتى انكب على مؤلفات كوركي يلتهمها إلتهاماً). هكذا كان المنفى مكان تجربة ومعاناة بالنسبة للشاعر. تنتهي مدة النفي، ويعود إلى الوطن عام 1899، وبعد سنة يسافر إلى ألمانيا، ومنها إلى مدينة زوريخ حتى عام 1901، يستمع إلى محاضرات الفلسفة والأدب وغيرها من العلوم، ثم ينتقل إلى باريز، ومنها إلى البندقية. يصدر خلال هذه الفترة الجزء الثاني من ديوان أشعاره، كما أنه يعيد طبع ديوانه الأول (أغنيات وجراح)، ونراه يعود فيما بعد إلى مدينة باكو سنة 1908، حيث تعتقله الشرطة القيصرية للمرة الثالثة،

بالتهمة السابقة أيضاً، مع عدد غير قليل من أدباء ورجال الفكر الأرمن. وتتحمل هذه النفس الحساسة ثقل الأغلال، وآلام السجن، وقساوة الطغاة سنة كاملة، إلى أن يفرج عنه، فيبادر إلى عقد قرانه على فتاة تدعى (صوفيك كوتشاريان).

في هذه الفترة، بعد أن عانى من التشرد والسجن ما لم يعانه أحد، وقاسى من الظلم والاضطهاد أكثر مما يحتمل، تولد ملحمته الشهيرة (أبو العلاء المعري). ولكن هل انتهت مآسي الاعتقالات؟ كلا، لم تنته بعد، فالشرطة لا تزال تطارده في كل مكان، وتتعقب آثاره لاعتقاله من جديد، لكن اسحاقيان يفلت هذه المرة من قبضة الشرطة، ويجتاز حدود روسيا خفية إلى أوروبا، ليجوب في أرجائها سنوات طويلة، بعيداً عن الوطن، والشعب والأهل. بعيداً عن وطنه الذي أحبه حتى العبادة، متشوقاً إلى بسطاء الناس الذين خلّد وجدانهم وعواطفهم بأشعاره، وقصائده التي كانت في كل قلب ترنيمة، وعلى كل لسان أغنية. بقي الشاعر يعاني ألم الفراق من سنة 1911 حتى عام 1936، زار خلالها مدن اسطنبول، فيينا، زوريخ، جنيف، بروكسل وباريز، وشاهد بأم عينيه مآسي الحرب العالمية الأولى، وقاسى ويلاتها. تذوق شظف العيش وشرب من كأس قساوة الحياة، ولكن أعمق جرح حزّ فؤاده وأدمى قلبه، هو تلك المذابح الجماعية التي حلّت بامته عام 1915 على يد الاتحاديين الأتراك. وتمردت روحه بسموم الكراهية على بربرية الإنسان ضد أخيه الإنسان. إذاً لابد من وجوب محاربة الظلم والاستبداد، حيثما كان، وفي كل مكان، ولابد من تمجيد البطولة والتضحية المقدسة في سبيل الوطن والحرية، وهكذا ولدت عام 1919 ملحمته القومية

الوطنية بعنوان (مهير ساسون) وهو بطل أسطوري وطني وإنساني بآن واحد.

ويعود اسحاقيان إلى الوطن عام 1936 مع أفراد عائلته، بعد أن تغيرت الأمور، وتبدلت الأحوال، فيستقبل بكل حفاوة وتكريم، ليتبوأ مكانته اللائقة به قاصداً الراحة والاستقرار، بعد التشرد والعذاب، منصرفاً إلى خدمة الشعب بأدبه وشعره لبناء عالم جديد، تدفيء فيه الشمس كل القلوب، وتسطع أنوارها لتنير كل الزوايا المظلمة.

ينتخب الشاعر عام 1940 عضواً عاملاً في أكاديمية أرمينيا. ويحتفل عام 1945 ببلوغه السبعين من العمر، رسمياً وشعبياً، ويمنح لقب (الكاتب الموهوب)، ووسام لينين. يعقب ذلك عام 1946 منحه جائزة الآداب من الدرجة الأولى في الاتحاد السوفياتي. واسحاقيان أول شاعر أرمني يستحق هذه الجائزة. كما أنه انتخب رئيساً لاتحاد الكتاب في أرمينيا. ظل اسحاقيان يحتفظ بهذا المنصب حتى وفاته في 17 تشرين الأول عام 1957، ودفن في مقبرة العظماء (بانتيون)، في يريفان، باحتفال كبير مهيب رسمي وشعبي. وجدير بنا أن نذكر، أن اسحاقيان، ظل ينتخب عضواً في مجلس السوفيات الأعلى في جمهورية أرمينيا السوفياتية حتى وفاته. كما أنه نال الأوسمة المختلفة، في مناسبات شتى، بالإضافة إلى لقب(المعلم أو الأستاذ) الذي منحه الشعب، تقديراً لما يتمتع به من الشعبية الواسعة. لأن أشعاره تمس قلوب كل الناس، وتحاكي وجدانهم.

شعر اسحاقيان:

قال الشاعر والناقد الروسي الكبير أليكساندر بلوك، الذي ترجم

أشعار اسحاقيان إلى الأدب الروسي: (.... اسحاقيان شاعر من الدرجة الأولى، ربما تفتقر اليوم أوروبا كلها إلى عبقرية ناصعة، وموهبة أصيلة كعبقريته وموهبته..). حقاً فليس من أحد يشك بأنّ اسحاقيان شاعر من الدرجة الأولى، ليس في الأدب الأرمني، وإنما في الآداب الأجنبية أيضاً. إنه عملاق من عمالقة الشعر، جعل القريض طوع بنانه، إنه نهر هادر من الأحاسيس التي تجري عبر قلبه إلى قلوب الناس. إنه سيل من المعاناة والفكر، يتفجر شعراً وجدانياً في أصالة ناصعة، يزخر بشتى ألوان الحياة، وصور الوجود. شعره يأسر القلوب، ويهز العواطف، يحاكي أحاسيس أبسط الناس، وذلك بما يزخر به من جمال المعاني وروعة الموسيقا، وانتقاء جيد للألفاظ، حتى تغدو قصائده أغنيات لا تحتاج إلى ملحن، وبطريقة من التعبير السلس الخاص بصاحبه، وبأسلوب سهل ممتنع، هين متعنت، حتى غدا اسحاقيان صاحب مدرسة شعرية خاصة به، يترجم فيها أحاسيس الناس وانفعالاتهم، من حب وأشواق، من ألم وفراق، حتى الحكم والأمثال، الحنين والآمال، تتحول إلى قصائد فنية رائعة الأصالة، صادقة التعبير، فولكلورية الجرس، إنسانية التفكير، يغلفها الحزن والمرارة. لقد عبر بشعره، وبنثره أيضاً، عن تطلعات الإنسان عبر العصور حتى عصرنا، نحو التحرر والانطلاق من خلال آمال أمته التي عانت من التشرد وذاقت طعم الذبح والتقتيل. لقد أحب الناس اسحاقيان، لأنه كان يعبر أصدق تعبير عما تختلج في نفوسهم، من الآمال والجراح، هكذا أطلق عليه الشعب لقب (المعلم أو الأستاذ). حقاً، لقد أصبح هذا الشاعر معلم الشعب في الوطنية والحب، في النضال والتمرد، في تجسيد آماله بالحزن والفرح. لقد

غدا شاعر الإنسان في كل مكان. لأنه تغنّى بجراحه في أول ديوان له(أغنيات وجراح) برومانسية حزينة تمس شغاف القلوب، حتى غدت قصائده أغنيات على كل لسان، حتى غدا أول شاعر تلحن قصائده بهذه الكثرة، إلى درجة، دفعت بالموسيقار الروسي الشهير، سيرغي رحمانينوف ليضع أجمل ألحانه (الرومانسية)، في قصيدة (الصفصافة). كما لحن كبار الموسيقيين الأرمن، والروس أكثر قصائد اسحاقيان، منهم (زازا ليفينا) و (كيوركي سيفيريتوف).

يقول ف . زفياكينسيفا:(.. اسحاقيان ... إن سر موسيقا شعره أكثر غموضاً وعمقاً من سر الإحساسات في فن الرسم، ومجال الفكر، ولا مثيل لعمق وأصالة شعره رغم بساطته).

اسحاقيان شاعر رومانسي غنائي، تسير في شعره الانفعالات النفسية والزوابع الوجدانية جنباً إلى جنب مع الحكم والأمثال، والقصص الآتية من ضمير الشعب، منذ الماضي السحيق، وهذا ما دفع باسحاقيان أن يدخل إلى هيكل الشعر الإنساني، ومنه إلى ساحة العالمية. لم يغالِ الشاعر الفرنسي الكبير لوي أراغون عندما تكلم عن الشعر في القرن العشرين، في تصنيف اسحاقيان إلى جانب الشعراء العالميين أمثال (ابولينير، ايلوار، ريكله، مايكوفسكي، يسنين وتشارينتس) وغيرهم.

ليس من اليسير إعطاء صورة كاملة، بهذه السطور القليلة عن شعر وأدب هذا الشاعر الكبير. ولكن تعالوا نستمع إلى صاحب هذا القلب الكبير، الذي يتعذب لمآسي الناس، أينما وجدوا. تترقرق الدمعة في مآقيه على مسيرة الإنسانية نحو جلجلة العذاب. فالشاعر

لا يحمل صليبه وحده، ولا صليب قومه، وإنما يحمل معاً صليب الإنسانية المعذبة في كل مكان، فنراه يقول: (رأيت أن قومي لايعانون وحدهم من البؤس والعذاب، وإنما الشعوب كلها تتعذب، فالقوي يلتهم الضعيف، الطغاة منتشرون في كل مكان، والعذاب يلاحق الجميع في كل زمان، الحروب دائمة الاشتعال، مذابح وتقتيل، سلطان المال يقود الإنسان حتى البغاء. الإنسان يستعبد نظيره الإنسان ويستثمره). إن روح الإنسانية لا تختفي، ولا تغيب من رحاب شعر اسحاقيان، فأنات الشعوب المستضعفة ترتفع لتصم الآذان، ولا أحد ينصت إلا قلب الشاعر. ولا من مستجيب إلا الحروف والكلمات. يقول في قصيدة نظمها أثناء ثورة 1905 في روسيا:

من آفاق الصحاري،
من أقاصي البحار،
من وراء الأبواب،
من السجون الصماء،
أسمع في الليل،
دون انقطاع، دون نهاية.
أسمع نشيجاً وبكاء.
أرى دموعاً تحاك بالبسمات.
أرى دماءً تعجن بالخبز،
وآلاماً تعم كل البشر،
وبحاراً من الدموع في هذه الدنيا
لا قرار لها وغير متناهية،

تتجمع قطرة قطرة، وتأتي،
من كل ملجأ ومن كل قلب،
لتصب في جراح قلبي الحزين.

أي قلب عظيم هذا القلب الذي تصب فيه دموع البشرية، بآلامها ومآسيها. ياله من قلب كبير، إنه قلب الشاعر. هنا تكمن عظمة إنسانية اسحاقيان. لأن ذلك القلب، عرف السجن والمنفى، عرف التشرد، وذاق مرارة الظلم. وكل هذا ينبع من قلب شاعر وطني صادق، تحمل كل هذه المعاناة من أجل أمته، ومن أجل كافة الناس، من أجل حرية وتحرر جميع الشعوب.

لقد تربع اسحاقيان على عرش الحب في قلوب الناس، بعد صدور ديوان شعره الأول (أغنيات وجراح)، ففي هذا الديوان الصغير رفع الشاعر صوته عالياً، في وجه مظالم الإنسان، ومآسي الحياة. كانت هذه المجموعة صرخة عميقة ملتهبة، صوتاً صافياً، يرتفع بحزن وألم أكثر من جميع الأصوات، أصوات أولئك الشعراء الذين كانوا يتقوقعون في أبراج أنانيتهم، في إطار الرمزية، بينما الحياة تضج بشتى ألوان الجمال، والقبح، بشتى ألوان السعادة، والتعاسة من حولهم. والشعب يصارع من أجل الحرية والعدالة الاجتماعية. كانت هذه المجموعة بشارة لمولد شاعر كبير في خضم إرهاصات بداية القرن العشرين. حقاً ليس من اليسير أن ينال شاعر شهرة واسعة بعد أول كتاب يصدر له، وهو لم يتجاوز العشرين من العمر. إنها ظاهرة قلما تحدث. وهذا ما حدث لاسحاقيان. وما سبب ذلك إلا لأنه عبّر بأشعاره عما يختلج في قلوب الناس من الحب والحنين، من الآلام والأشواق، بواقعية صادقة تنبع من نفس تكمن فيها أصالة الإحساس

الفني، وصدق الشعور. وهذه الواقعية تمازجها الرومانسية، بعاطفية حزينة، أليمة، فيها الشكوى إلى حد التمرد والثورة، فيها الشكوى من الزمان. شكوى هجر المحبوب، شكوى الفراق والبعاد، شكوى الفقير من البؤس، والمظلوم من الجور والاستبداد، وأخيراً شكوى الإنسان من المصير المجهول، من الموت والعدم.

تغنّى الناس بأشعار اسحاقيان، لأنها تفلسف إحساساتهم، وتمس أصدق الأوتار في قلوبهم، وتداعب أرق العواطف في نفوسهم، والشاعر يعزف على قيثارة شعره أجمل الألفاظ بأحلى الأنغام، بشجو حزين.

ألف قلبي المكلوم أغنيات،
وغناها بحلاوة، بحزنٍ.
آلامي ذابت، سالت دموعاً،
سالت صافية، سالت ينبوعاً.
أغنياتي كالطيور طارت،
ومع الرياح غابت،
وأدمعي غدت أنداء
تتلألأ على صدور الورود.
مضت أيام، وجاء موتي،
وتحت تراب بارد، جاء سباتي.
والوردة، تلك التي بأدمعي رويتها،
ألقت علي ظلالها.
ورياح جاءت تتغنى فوق قبري.
تتغنّى بأغنيات حزينة:

آه... إنها تغنت بتلك الأغاني الحلوة،
بالتي كان قلبي قد ألفها بالأمس..

بقي اسحاقيان طوال حياته الشعرية، وفي كل ما أصدر من الدواوين ، فيما بعد، صادقاً لمصادر إلهامه الشعري، في أرض وطنه، أو ما في حياة بسطاء الناس ومن الحكايات والأساطير، ومن الحكم والأمثال. او مافي بقية أنحاء العالم من الحكم والأمثال والأساطير. كما أنه ظلّ وفياً للآداب الكلاسيكية العالمية. أمثال غوتيه وهاينيه وبايرون وليرمنتوف وغيرهم. قال هو عن ملهماته: (إن أدلّائي في الشعر هم الطبيعة والشعب والثقافة الكلاسيكية).

اسحاقيان شاعر واسع الثقافة، مطلع على كافة التيارات الثقافية، من أدبية وفكرية، من اجتماعية وعلمية، ومن القدماء حتى المحدثين، وهو يتمتع بحساسية قوية في استخراج العبر والحكم، من أساطير الشعوب وحكايات الأمم، وله قوة ملاحظة أبسط الحوادث، التي تدور حول فكرة، تغدو عظيمة الشأن كبيرة المعنى. لذا نجده، كثيراً ما يعمد في قصائده، إلى القصص القصيرة، أو الحادثة الذكية، أو إلى حياكة الأساطير في ملاحم شعرية عظيمة. وينتقل من وطنه إلى أوطان كل الأمم. والأمثلة على ذلك كثيرة وعديدة. ففي قصيدة (الحب الخالد) تجده يمجد الحب في مدينة تدمر القديمة العريقة بحضارتها. ثم نراه يرتفع بعشق (مجنون ليلى) إلى قمم جبال القوقاز. وفي قصيدة أخرى، يحدثنا عن عبر في حياة (اتيللا وسيفه). ثم ينقلنا إلى أثينا ليحدثنا عن (موت سقراط)، وهكذا يعبُّ اسحاقيان من ثقافات الأمم بكل ما هو جدير بالمعرفة، والحديث عنها، ليقدمها لنا بشعر قصصي فني وغنائي. وفي كل ما يكتبه لنا، تدور أغراضه، حول ما يحمل

الإنسان من الصفات الحسنة أو السيئة، من الفضائل والرذائل.

وأما شعره الوطني، فإنه يحتل حيزاً كبيراً من تراثه الأدبي. فهو وطني مخلص لتراب وطنه، ولتراث أجداده، أمين في حبه لقومه، لقد تحمل آلامهم ومأساتهم. إذ عانت أمته اشد ما عانت الأمم على البسيطة، من قتل جماعي، وذبح واضطهاد، من تشريد وإفناء. لقد انعكست هذه المصائب التي حلت بيني قومه في قصائده، وقصصه النثرية وحتى في سلوكه؛ فكتب ملحمته القومية الوطنية الرائعة (مهير ساسون). ومهير بطل قومي أسطوري يدافع عن أرض أرمينيا ويستبسل في طرد الغزاة الغاصبين منها. لقد قال الأديب: (سيمون تشيكوفاني) عن اسحاقيان:- «إن اسحاقيان يتغنى بماضي وطنه برومانتيكية عاشق ولهان، سحر بجماله الخالد. فالوطن عنده يسمو إلى مرتبة العبادة والتقديس. وربة إلهام الشعر لا تكف عن إيحائه وسحره بماضي ذلك الوطن، وبحاضره وبمستقبله، والتغني بأفراحه وبسعادته. وكذلك يعرف الشاعر كيف يرثي آلام وجراح أرمينيا...» لقد دفعت المآسي التي حلت بقومه سنة 1915 إلى التشاؤم والكآبة. - مع أنه إنسان مرتبط بالحياة أشد الارتباط - فانعكست فكرة العدمية وفراغ هذه الحياة من المعنى. دنيانا هذه فانية، لم تعد للوجود من معنى ما دام الإنسان لا زال يفني أخاه الإنسان. والموت يتربص في كل مكان وزمان. قال في قصيدة:

ابكي يا عزيزتي ابكي بكاء مراً،
فليس لجراح الدنيا دواء شاف أبداً.
وحياتنا، ما حياتنا إلا لهيب شعلة،
تجاه رياح رهيبة للطبيعة.

الحب والأغنيات، المجد والعبقرية،
أشياء تافهة وجدت لتنسي المنية.
والإنسان تعيس ضعيف لا حول له.
ولد ليكون لقمة سائغة للموت.
... وقلبي جرحٌ عميق الغور
يبكي ألم الكون...
يبكي قروناً بصمت، بلا دمع.
آه.. ضعي رأسك المسكين،
على صدري الحزين.

واسحاقيان يعشق الجمال ويهوى الحسن، لا يكف عن وصف جمال كل كائن حي، أو جماد في الطبيعة. يصف في المرأة جمال العيون وسوادها، وتموجات غدائر شعرها، يتغزل بسحرها وفضائلها، بحسن دلالها وتمنعها، وبعزتها وشجاعتها. كما أنه يبدع في وصف عناصر الطبيعة ومناظرها، وكثيراً ما يفلسف جمالها. هكذا نستطيع أن نقول إن اسحاقيان قد تطرق إلى كافة فنون الشعر تقريباً، وأجاد إجادة لا تنكر في كل ما كتب، حتى في ما كتب من الأمثال الشعرية على لسان الحيوانات.

أما نثره:

فليس اسحاقيان شاعراً فقط، وإنما هو، إلى جانب ذلك، ناثر بارع، وناقد ثاقب النظرة، دقيق الملاحظة. لقد كتب العديد من القصص القصيرة، وأكثرها إما تعتمد على الحوادث اليومية التي تقع بين الناس، أو على حكايات وأساطير وطنية استلهمها مما تروى بين

مواطنيه، أو استلهمها من ثقافات بقية الأمم. وتمتاز قصصه وحكاياته بعمق المعنى، وجمال الأسلوب، وسلاسة التعبير. فهو يروي لنا الحادثة بلغة شعرية، وصور خلابة ملونة بشتى ألوان الحياة، و.. بواقعية أصيلة صادقة تنبض بالحياة وتفيض بالعبر والحكم، وتتسم بالنضالية والأمل. وبتشاؤمية تصل إلى الثورة والتمرد على الجور والظلم، على الاستبداد في الدنيا. ومن أجمل ما كتب من القصص قصة (الغاريبالدية). وهي قصة أحد زملاء الثائر الإيطالي غاريبالدي الذي صادفه الشاعر، عندما كان منفياً في مدينة أوديسا. كذلك قصة (آخر ربيع سعد الشيرازي). كما أنه أبدع رواية لم تكتمل، وهي من أجمل ما كتب في النثر، بعنوان (اوسطه كارو). وأبطال قصصه ليسوا من أبناء قومه فقط وإنما، هم ينتمون إلى جميع الأمم وأكثرها شرقية. إذ نجد الحكاية الفارسية إلى جانب القصة العربية، والحكمة الهندية إلى جانب الأسطورة الصينية أو اليابانية، وهو يتوخى في سرد قصصه أو حكاياته، الحكمة والعبرة للإنسان. ويسرد الحادثة الهامة أو العادية بطريقة بسيطة، ولكنها فنية في غاية الإبداع والجمال.

ملحمة المعري:

قال الأديب (ليونيد برفومايسكي) سنة 1939 «لقد سحرني اسحاقيان بشعره الوجداني المشبع بالحزن الهادىء ظاهراً، حيث تبدو لك المأساة تعصف، وتغلي في شفافية قاع المياه المتجمدة. لقد سحرت بملحمة المعري. إنها قصيدة تحمل روعة النغم، لا مثيل لها في الشعر العالمي». وكتب البروفسور (س . م. باوران) من جامعة اوكسفورد في الثامن من أيلول عام 1946 .« كنت أجهل كل شيء عن شعر

اسحاقيان حتى الآن. لقد أصبح شعره بالنسبة إلي اكتشافاً كبيراً. إن اسحاقيان يعتبر اليوم واحداً من أعظم الشعراء الأحياء في العالم، لقد ترك في نفسي انطباعاً عظيماً بعمق موهبته وقوتها».

لا شك في أن اسحاقيان دخل محراب الآداب العالمية بملحمة المعري بالدرجة الأولى. لقد خلدته هذه الملحمة بين أدباء أمم الأرض قاطبة، وخلدت أيضاً حكيم المعرة أكثر من أي شيء آخر. لماذا كتب الشاعر هذه الملحمة؟ تحمل اسحاقيان، وهو الشاعر الحساس، من قساوة الحياة ومظالم الإنسان الشيء الكثير. سجن وتشريد، اعتقال ونفي، حياة مضطربة، مشاهد من مظالم القيصرية الروسية لا تنتهي، مذابح وحروب، قيم إنسانية تهدر، حقوق أمم تداس بأقدام الطغاة، طبقات بشرية تسحق تحت أقدام الفقر والجوع، مظالم... ومظالم في كل مكان وفي كل زمان. هذه هي الفترة التاريخية التي عايشها الشاعر حتى كاد أن ييأس من وجود العدالة على وجه الأرض. وأراد أن يعبر عن كل هذه المعاناة، فبحث عن شخصية يتقمصها. شخصية عاشت معاناة الإنسان وأدركتها خير إدراك، وفلسف هذه الحياة بخيرها- إنْ وجد - وبشرها- إنه يملأ الخافقين - وظل يبحث عن هذه الشخصية التاريخية التي يستطيع شاعرنا أن يتقمصها ليتكلم بلسانها. فلم يجد خيراً من أبي العلاء المعري. وكان اسحاقيان قد اطّلع على حياة المعري وشعره في اللغات الأجنبية. وأعجب بالمعري أيما إعجاب ملك عليه شغاف قلبه وأفق فكره. هكذا أخذت قافلة المعري تجوب الآفاق باحثة عن نور العدالة، وشمس الحقيقة.

يعتبر النقاد ملحمة المعري قمة اسحاقيان الشعرية، وخلاصة معاناته، وعقدة انفعالاته. نهج فيها منهج رومانسية بداية القرن

العشرين. فيها من العواطف الجياشة ماتصل، أحياناً، إلى درجة الجنوح، نحو المغالاة في بيانه لفكره الوجداني. وفيها أعصابه الملتهبة، التي تتوتر إلى درجة تفجير ثورة نفسية على أوضاع البشر. إنه يصور زمانه خير تصوير، ويعبر عن عصره أحسن التعبير. لقد صب في هذه الملحمة عصارة أعصابه، وخلاصة فكره. لذا يعتبرونها، أو كما يعتبرها هو، حسبما صرح ذات يوم بأنها – أي الملحمة– (ابنه الروحي).

ولا يمكن تقييم هذه الملحمة وتفسيرها، إلا بعد دراسة الأحوال الزمنية التي رافقت ولادتها، أو أثرت في مخاضها. وإذا أردنا البحث عن علاقة هذه الملحمة بالشاعر العربي أبي العلاء المعري، حيث الفاصل الزمني الكبير يبعد بينهما، بأكثر من ألف سنة، حتى نعتبرها، أو إنْ كان ممكناً إعتبارها (ملحمة تاريخية)، تعبر عن سيرة أبي العلاء وفلسفته، فما علينا إلا الرجوع إلى نص الملحمة، حيث نلاحظ أن اسحاقيان لا يتقيد بالدقة التاريخية لسيرة المعري. لأن هناك ما يخالف حقائق تاريخ حياة المعري. فليس هو بشاعر بغداد، ولم يعش هناك عشرات السنين، ولم يتجول في أطراف العالم. كما أنه لم يغادر الحضر إلى البادية. إذاً فالملحمة ليست تاريخية. وإنما هي تعبر عن رؤية المعري، وتكشف عن فلسفته، وهما في الحقيقة رؤية وفلسفة اسحاقيان. لقد لام المستشرق الروسي (كراتشوفسكي) اسحاقيان على عدم تقيده بتاريخ حياة المعري. غير أنه فهم من رسالة بعث بها إليه الأديب والناقد الروسي (فاليري بروسوف) يعلمه: (بأن الغاية من ملحمة المعري هي ليست إعطاء سيرة الشاعر بالدقة التاريخية، وإنما هي بيان لآرائه في أنظمة المجتمع السائدة. وفلسفة المعري في واقع الحياة، وما كان يثور عليه من المتناقضات، التي تسود حياة الناس في

زمنه، والتي ما زالت باقية حتى الآن. كذلك ثار اسحاقيان على هذه الأوضاع السيئة من المتناقضات الاجتماعية التي تسود علاقات الناس. وتقمص شخصية المعري ليعبر بلسانه، عن آرائه وعواطفه، بهذه الملحمة الشعرية، وبطريقة فنية معاصرة. لهذا، ليس من المهم التقيد بالحقيقة التاريخية في العمل الفني.)

قال اسحاقيان: (إن النظرة التشاؤمية التي تبدو في ملحمة المعري، ليست غريبة على نفسي، لأنني رأيت كل هذه الحالات من المظالم التي أرفضها). هنا يلوح لنا يأس اسحاقيان من كل شيء، لأنه لم يجد وسيلة للخلاص من هذه المظالم إلا بالابتعاد عنها، إلى الصحارى الطاهرة، حيث تسود الحرية المطلقة، حيث الشمس تسطع بالحق والعدالة، حيث الأرض لم تدنس بعد بجرائم البشر.

أما الدافع الذي حدا باسحاقيان ليتخفى وراء شخصية المعري دون سواها، فهو أن اسحاقيان كان قد اطلع على حياة المعري وشعره في كتيب صغير باللغة الألمانية، ووجد نفسه قريبة جداً من نفس الشاعر الكبير. كما وجد في البيئة التي عاش فيها المعري ورفضها، ما ينسجم مع روحه الرومانسية، إذ توحي له بأشياء كثيرة. فصورة الظلم الاجتماعي، وصور قوافل الجمال، والصحراء الطاهرة، ثم حكمة الشرق وروحانياته وفلسفته وصوفيته في الحق والعدالة. إن كل هذه الأمور وجدت صدى في نفس اسحاقيان، وأيقظت فيها ولادة هذه الملحمة في شخصية المعري. لم يأخذ اسحاقيان من شعر المعري سوى هذا البيت (هذا جناه أبي علي - وما جنيت على أحد)، ولم يأخذ أية كلمات، أو صور، لئلا يتهم بالتقليد، حتى أنه غير قصة حياة المعري، وأعطاها نفحة فنية رومانسية، كما ذكر بروسوف. ولكن ما سبب هذا

التشاؤم البادي على الملحمة؟ قال الشاعر في ذلك: (إنه السجن والمنفى، إنه العذاب والاضطهاد، التشرد والحرمان. أضفْ إلى ذلك تلك المذابح الرهيبة التي تعرضت لها أمتي.) إذاً كل هذه الحوادث هي منبع التشاؤمية في الملحمة. لقد نسب البعض هذه التشاؤمية إلى ما يحمله الشاعر من مؤثرات الفيلسوف الألماني (فريدريك نيتشه). كما تعرض البعض الآخر للرمزية والرومانسية في أشعار اسحاقيان، ذاهبين فيهما شتى المذاهب. إلا أننا نرى بكل وضوح، آثار الواقعية في شعره الوجداني، إلى جانب تدخل الرمزية، وبعض التيارات الحديثة في بقية أشعاره. ولكن مع كل ذلك، يقف اليوم اسحاقيان شاعراً رومانسياً، يقدم لنا الشعر الرومانسي الكلاسيكي بثوب جديد، تحت مؤثرات ظروف حديثة، إذ أنه كان من المعجبين بشعراء الرومانسية أمثال - بايرون، وشيللي، وهاينيه، وميتسكفيج، وليرمنتوف، وباراطاشفيلي . وتعتبر ملحمة المعري قمة رومانسية اسحاقيان، رومانسية شرقية بالمضمون والشكل، لأن اسحاقيان استعمل فيها الأشكال الشرقية، وخاصة العربية منها، في أوزان القصيدة الموسيقية، والأبيات الطويلة، كذلك عنون كل فصل من فصول الملحمة بـ(السورة) لاضفاء نفحة عربية شرقية إسلامية عليها. كما أنه استعمل، في لغة الأصل للملحمة، كثيراً من الكلمات العربية لينقل القارىء الأرمني إلى أجواء المعري العربية، وعلى سبيل المثال نورد بعضاً من هذه الكلمات (السورة، الواحة، البدو، الجن، السراب، الإبليس....الخ).

إذا دخلنا في صلب الملحمة، من حيث فاعلية الأبطال فيها، وحركية الاتصال بالمجتمع، فإننا نجد فيها البطل فرداً، وليس جماعة، وهذا الفرد في حوار دائم ومناجاة مع نفسه. غير أن هذه المناجاة لا

ترصد فقط القضايا الفردية، وإنما ترصد أيضاً القضايا التي تهم المجتمع، تهم كل إنسان مسحوق، في كل زمان ومكان. وتنبع هذه المناجاة من عناصر وجدانية تحاكي وجدان الأفراد جميعاً. فالصراع الذي نحس به هنا هو صراع الإحساسات والشعور والمعرفة. ليست هناك حوادث مأساوية تحرك هذا الصراع نحو المناجاة الفردية، ولكن عناصر الصراع هنا منسجمة جميعاً في (هارمونية)، لبيان الغاية من حوار الشاعر (ديالوك) إلى ما يسعى إليه الإنسان من الرفعة والعدالة والجمال. وبطل الملحمة هنا- أي المعري - كئيب حزين، جريح النفس، موجوع الروح، يتألم، وآلامه تنبع من ذاته، وليست من أجل ذاته، بل من أجل البشرية. إنها آلام عالمية. واسحاقيان يجعل من روح المعري مرآة تعكس كل آلام الإنسانية وأحزانها وهمومها. والبطل هنا، إلى جانب كل ذلك، ثائر على الأنظمة والقوانين، متمرد على الظلم والطغيان، رافض كل ما هو غير إنساني، فهو يرفض الزيف والخداع، والكذب والنفاق. ويتمثل هنا على شاشة ذهننا بطل الشاعر الانكليزي (بايرون) في قصائد (تشليد هارولد) و (أشعار شرقية). كذلك ما في القصائد الرومانسية لكل من الشعراء- ليرمنتوف، بوشكين، وميتسكيفيج -. وبذلك تأخذ بنا ملحمة المعري إلى الينابيع الرومانسية العالمية في عالم اسحاقيان ووجدانه، حيث الشاعر يذوب في بوتقة الآلام الإنسانية بانسجام تام.

يقول اسحاقيان: (تحت ذلك المعطف لا أحد سواي). إذا كانت قافلة المعري تبغي الابتعاد عن الناس، وتنشد الراحة والسلام في هدوء الصحارى، وفي طهارة البوادي، باحثة عن الحق والعدالة، في الشمس، ينبوع النور ورمز العدالة عند الشاعر، تاركة وراءها الأهل

والوطن، فليس هناك أي شك بأن هذا الهرب ليس إلا رمزاً لهرب اسحاقيان من وطنه، بسبب الاضطهاد القيصري، بسبب السجن والتنكيل. فمغادرة المعري مدينة بغداد ترمز إلى مغادرة اسحاقيان وطنه. غير أن الشاعر يحن إلى الوطن، ويود الرجوع إليه، بعد أن تزول السجون، وتنقشع ظلمة الاضطهاد، وترفرف راية الحرية على ربوعه، وتسود روح العدالة والحق. هذا ما أوحى لاسحاقيان بقصيدة «عودة أبي العلاء». نظم هذه القصيدة بعد عودته إلى وطنه عام 1936، حيث استقبل استقبالاً حافلاً. لم تدخل هذه القصيدة في أية طبعة من طبعات ملحمة المعري، أو في الترجمات. ولسنا نعلم سبب ذلك. ولكنها نشرت مستقلة. ولا بد لي أن أقدم ترجمة هذه القصيدة هنا وفي نهاية الملحمة، وذلك استكمالاً لرؤية اسحاقيان النهائية في ملحمة المعري.

مقارنة سريعة بين ملحمة المعري وبين الآداب العالمية:

يرى بعض من النقاد والدارسين، أن اسحاقيان استلهم ملحمة المعري من قصيدة بعنوان (ميراني) للشاعر الجيورجي (باراطاشفيلي). لكن اسحاقيان نفى ذلك، حين قال: (إن الشعراء، بايرون وهاينيه، وميتسكيفيج وليرمنتوف ومعهم باراطاشفيلي شعراء محببين إلى نفسي. كما أن ملحمة المعري أنيسة إلى روح تشيلد هارولد لبايرون. كذلك إلى روح كل من قصيدة (الفارس) لميتسكيفيج، وقصيدة (ميراني) لباراطاشفيلي وروح كل هذه القصائد محببة إلى نفسي، وكل ما هو خلاف ذلك فهو غير صحيح أبداً).

إن العصر الذي يتخذه الدارسون، للمقارنة بين هذه القصائد التي

ذكرناها، هو هروب البطل من المجتمع، وابتعاده عن الناس، أي فكرة الاغتراب والانفراد. إن أول شاعر في العالم أوجد شخصية البطل الهارب يائساً من المجتمع هو الشاعر الانكليزي بايرون في تشيلد هارولد. الجدير بالذكر، أننا نجد كثيراً من الأبطال - في روايات وقصص عديدة - يهربون من مجتمعهم، أو من المجتمع بصورة عامة ، أو من واقعهم. إما حباً في الأسفار، أو بحثاً عن المال، أو لأسباب عائلية، أو من الاضطهاد والظلم. وربما أيضاً من الحب الميؤوس منه، أمثال رواية (كانديد وتوم جونس... الخ) . إلا أن آلام بطل بايرون في تشيلد هارولد آلام إنسانية عامة، ليست لأسباب ذاتية أو عائلية. كذلك ليست ببعيدة عنا معرفة ما يعاني بطل اسحاقيان في الملحمة من الآلام، إذ أنه - أي المعري - يرتبط بنفس روابط المعاناة التي يعاني منها بطل بايرون الذي يقول:

جالس الكثيرين،
ولكن آه... بقي وحيداً،
لقد عرفت روحه زيف البشر ورأت مظالمهم،
آه... إنه لم يودع أمه بكلمة الوداع،
وهرب من البيت الأبوي.

فبطل بايرون يهرب يائساً متألماً من الوضع الاجتماعي السائد. لكن هروب المعري من المجتمع هروب رمزي فلسفي، ولكن لنفس الأسباب الميؤوسة منها.

أما بالسنبة لقصيدة (الفارس)، للشاعر البولوني آدم ميتسكيفيج (1798- 1855) فإن العناصر الشرقية فيها تتقارب، وتتعاطف مع

العناصر الشرقية في ملحمة المعري. كصورة (الفارس المنطلق في الأفق البعيد)، وهذه الصورة ترمز إلى الحرية والحياة، إنها صورة عنصر رومانسي، تحاكي رموز اسحاقيان. إلا أننا، نرى ميتسكيفيج يضيف إلى هذه القصيدة (الفارس) سنة 1828 قصيدتين، الأولى عن الشاعر العربي بعنوان (الشنفري)، والثانية باسم الشاعر العربي الكبير (المتنبي). لقد نسج الشاعر هاتين القصيدتين مستلهماً أفكاره من حياة وأشعار هذين الشاعرين. كان قد أطلع عليهما من الترجمة الفرنسية. وسمى القصيدتين بـ (القصيدة). حيث نجد الشنفري والمتنبي يهربان من المجتمع الإنساني، ويبتعدان عن البشر، وقد لف اليأس نفسيهما. ويجدان في الصحراء الملجأ الأمين، والهدوء والسلام، وتتراءى لنا في الأفق البعيد قافلتاهما تسيران الهوينى على رنين أجراس الإبل، بحيث توقظ هذه الصورة في النفس الحنين والألم، الرجاء والخلاص. إن بطل ميتسكيفيج - أي الفارس- يجتاز الصعاب ويخترق المهالك التي تعترض طريقه، من عناصر طبيعية أو بشرية. إنه فارس مغوار يتغلب على الصعاب، ويجتاز العقبات منطلقاً نحو النصر والحرية. أما بطل اسحاقيان فإنه ينطلق أيضاً بقافلته نحو الصحراء ينشد الحرية والتحرر، يبحث عن العدالة الضائعة. (مثل فارس ميتسكيفيج)، غير أن بطل هذا الأخير يتغلب، وينتصر، بعد كفاح ونضال، لكن بطل اسحاقيان يهرب من النضال يائساً كل اليأس من إصلاح البشر، تاركاً وراءه كل شيء. والغريب في مصدر الإلهام في هاتين القصيدتين (الفارس، وملحمة المعري)، رغم بعد المسافة الزمنية والمكانية بينهما، هو أنه مصدر تكاد تتشابه فيه المؤثرات الواقعية، أو الظروف التي بعثت في نفسي الشاعرين

فكرة القصيدتين. ففكرة الفارس عند ميتسكيفيج ولدت ذات يوم، بينما كان الشاعر عائداً من سهرة ليلية في عربة تجرها الخيول، وهو في غاية السرور والنشوة، إذْ بعاصفة هوجاء تراءت في الأفق، منذرة متوعدة على وشك المداهمة، مما حدا بالحوذى أن يحث الخيول للإسراع بأقصى ما يمكن لتفادي خطر العاصفة. تصوروا مع الشاعر، العربة المسرعة، وأنين عجلاتها وأزيزها، والخيول منطلقة بأقصى السرعة، صوت سنابكها، صفير الريح، والسماء ترعد وتبرق، والخوف من طوفان مغرق يصم القلوب، ويكم الأفواه. هذه هي الحادثة التي ألهمت الشاعر، وأوحت إليه بقصيدة الفارس، والتي نظمها في الليلة ذاتها. لذا جاءت موسيقا أوزانها قصيرة سريعة (رتمية)، كسرعة العربة، وصوت سنابك الخيول المنطلقة في ظلام الليل بأقصى السرعة. أما الحادثة التي ألهمت اسحاقيان في ولادة ملحمة المعري، فهي كما رواها الشاعر: (في شهر آب من عام 1909، كنت قد خرجت حديثاً من السجن تحت طائلة المحاكمة، وكنت عائداً بالقطار من بلدة (الكساندروبول) إلى مدينة (يريفان)، بناء على دعوة تلقتيها من الشرطة للتحقيق معي. كنت جالساً قرب سائق القطار الذي كان يسرع في السير. أحدق في الأفق البعيد حيناً، وأنظر إلى عربات القطار المنطلقة حيناً آخر، وكنت في تلك اللحظة، أتمنى أن يستمر القطار في سيره وانطلاقه، نحو الآفاق البعيدة، دون توقف ليبعدني عن براثن السلطة وقبضة الحكومات، عن البشر والمحاكم، عن القوانين والأنظمة. وينقذني مما أنا فيه من العذاب. وكنت أردد بيني وبين نفسي: – سرْ،سرْ بنا.. أبعدني عن السجون والقلاع. آه... انقذني انقذني.. – كان القطار قد دخل

صحراء (صارداراباد) عند الغسق، وكنت لا أزال أحدق في الأفق البعيد، إذْ خُيّل إلي، أني أرى على الأفق البعيد طيف قافلة من الجمال تسير.. وتسير... هكذا كانت رؤية ملحمة المعري جاهزة في طيات ذهني. وعند عودتي، مررت بقريتي غازاراباد، وكتبت هذه الملحمة، خلال ثلاثة أيام.).

هكذا ولدت ملحمة المعري، كما ولدت ملحمة الفارس.

اتجه كثير من الشعراء، من رومانتيكيي القرن التاسع عشر، إلى البحث عن مصادر إلهامية شرقية في انتقاء أبطال ملاحمهم، وللتعبير عن رؤياهم الشعرية، ومن هؤلاء أيضاً، الشاعر الثوري البولوني الكبير (يوليوش سلوفاسكي)، الذي كتب عام 1828 قصيدة بعنوان (الشنفري)، وفي عام 1830 كتب قصيدة أخرى بعنوان (العربي). والبطل في كل من هاتين القصيدتين هو ذلك الإعرابي الذي لا ينفك عن الرحيل إلى الصحارى، تاركاً وراءه المجتمع الإنساني، باحثاً عن الحرية والهدوء، طالباً التحرر من القيود، فخوراً بحريته، وفرديته واغترابه. حقاً إن فكرة الهروب إلى الصحراء تجمع بين هذه القصائد عامة، وبين قصيدة العربي وملحمة المعري خاصة. إلا أننا لا نوافق على ما يقال، بوجود مؤثرات (العربي) لسلوفاسكي، في (معري) اسحاقيان. إذ ليس لدى القائلين أي دليل على ذلك. ثم إن قصيدة العربي، لم تكن معروفة عند اسحاقيان، لأنها لم تكن مترجمة إلى اللغات التي يجيدها اسحاقيان. ولكن الفكر الرومانسي – حينذاك – الذي كان يتجه نحو الشرق، باحثاً عن أبطال شرقيين تكمن فيهم النزعة نحو التحرر والانعتاق، نحو فكرة الحق والعدالة في إطار صوفي. كان هذا الفكر الرومانسي كثيراً ما يدفع بشعراء

أوربا إلى اتخاذ المواضيع الشرقية أو الأبطال، محوراً لأعمالهم الأدبية للتعبير عن رؤياهم، وشعورهم الفني، في الشعر أو النثر، مثل – زاديك أو القدر لفولتير، والرسائل الفارسية لمونتيسكيو.. وغيرها.

إن قصيدة (العربي) لسلوفاسكي تماثل فردية بطل ملحمة اسحاقيان، كذلك من حيث الهروب والمناجاة الشخصية – لنفس الأسباب التي ذكرناها – رغم أن اسحاقيان لم يطلع على قصيدة العربي، ولم يسمع بها. أما إذا قارنّا بين قصيدة العربي، وقصيدة ميراني لباراطاشفيلي فنصل إلى نفس النتيجة. وفي هذا المجال علينا ألا ننسى ذكر قصيدة (الغول) للشاعر الروسي (ليرمنتوف). من هذه المقارنات نصل إلى النتيجة التالية. – إن ما يربط ملحمة اسحاقيان بكل هذه القصائد هو الفكر الرومانسي المعاصر، في تلك الآونة، والذي يريد التعبير عن آلام وأماني المجتمع البشري، ويبحث عن الوسيلة التي يستطيع بها إزالة الأوضاع السيئة، التي يعاني منها جميع الناس، إما عن طريق النضال المستمر والكفاح الطويل، أو بالابتعاد عن كل ما يرتبط بالناس بحثاً عن ملجأ أمين في الصحارى الموحشة. وخلاصة القول: لقد اتجه اسحاقيان أيضاً – كغيره – إلى الينابيع الشرقية – وهو الشرقي الأصيل – ربما تحمل من المعاناة والعذاب أكثر من أي شاعر ممن ذكرناهم. لذا جاءت ملحمته صادقة الشعور، تنبع من واقع الحياة، تعكس صورة الأوضاع السائدة آنذاك. مما حدا بالسلطات القيصرية أن تمنع طبع الملحمة ونشرها.

هذه لمحة سريعة عن ملحمة المعري، ومقارنتها بالآداب العالمية.

مؤلفات اسحاقيان الشعرية والنثرية:

نظم اسحاقيان ما يقارب (350) قصيدة شعرية منها حوالي (20) ملحمة، أو قصة شعرية، عدا ما نظم من الأمثال الشعرية التي تزيد عن الثلاثمائة (مثل، وحكم) من الأمثال والحكم الشعبية المتداولة بين الناس أو القديمة، الأرمنية والأجنبية.

1- ديوان (أغنيات وجراح) شعر، طبع لأول مرة سنة 1902 في مدينة باكو.

2- ديوان شعر باسم (مجموعة أشعار) طبع في باكو عام 1903.

3- قصيدة ملحمة المعري بعنوان (أبو العلاء المعري) طبعت لأول مرة في مجلة الفن الجميل التي كانت تصدر في اسطنبول عام 1909، ثم صدرت في كتيب عام 1911، وطبعت فيما بعد طبعات لا تحصى في أنحاء مختلفة من العالم.

4- ملحمة شعرية بعنوان (مهير ساسون) وهي أسطورة قومية.

5- مجموعة شعرية بعنوان (ألاكيازي مانينير).

6- ديوان (منتخبات شعرية) صدر سنة 1943 .

7- قصة بعنوان (ليليت).

8- كتاب (صفحات)، طبع سنة 1923 في اسطنبول.

9- رواية بعنوان (اسطه كارو) وهي من أروع مؤلفاته النثرية رغم أنها لم تكتمل.

10- كتاب (ذكرياتي) مقالات.

11- كتاب (في سبيل الدفاع عن الوطن)، نثر.

12- كتاب (غليون الصبر) قصة قصيرة طبعت سنة 1930 .

13- كتاب (لهم راياتهم) ومقالات أخرى.

14- مجموعة مؤلفاته صدرت في أربعة مجلدات.

15- تطبع الآن، اعتباراً من عام 1973 مجموعة مؤلفاته الكاملة في ستة مجلدات أكاديمية، صدرت حتىالآن أربعة مجلدات بحلة قشيبة، في أرمينيا(*).

نظار .ب. نظاريان

* تمت طباعة هذه المجموعة في حينها. وطبعت له مجموعات أخرى عديدة منذ ذلك التاريخ الى اليوم (الناشر).



أبو العلاء المعري

أبو العلاء المعري

شاعر بغداد الشهير[1]،

عاش عشرات السنين

في عاصمة الخلفاء الفخمة.

عاش في المجد والنعيم،

جالس النبلاء والعظماء ونادمهم.

ناقش العلماء والحكماء وجادلهم.

أحب أصدقاءه وجربهم.

وجد في أوطان أمم عديدة[2].

رأى الإنسان وتأمل شرائعه.

وعرفت روحه النافذة الإنسان.

---

(1) لم يكن المعري شاعر بغداد ولكن اسحاقيان أراد ذلك لبيان الشهرة (المترجم).

(2) أي أنه غدا شاعراً عالمياً (المترجم).

عرفته وكرهت شرائعه ونظمه.
ولأنه لم تكن له زوجة ولا أولاد،
وزع كل ثروته على الفقراء والمعوزين،
وذات ليلة بينما كانت بغداد راقدة
على شواطىء دجلة المكسوة بأشجار السرو
أخذ قافلته الصغيرة المحملة بالمؤمن والذخائر
وغادر المدينة سراً....

السورة الأولى

وقافلة أبي العلاء
كانت تسير الهوينا
كخرير الينبوع الجاري برفق،
في ليلة ناعسة اللحاظ
على حلو رنين الأجراس.
وتلك القافلة الملتوية
تقيس الطريق بخطوات متساوية،
ورنين الأجراس يسيل حلاوةً،
ويفيض غامراً صمت السهول الشاسعة.
وبغداد هاجعة على خمول وثير،
غارقة في أحلام نعيم الفردوس.
والبلبل في جنان الورد،
يشدو بعبرات الهيام

أحلى قصائد الغزل.

والفوارات تطلق الضحكات الصافية

بسخرية ياقوتية.

وكانت شقشقة القبلات، وفوح العطور،

تنتشر في كل ناح كالبخور،

من قصور الخلفاء السابحة في النور.

وقوافل جواهر النجوم

تهيم في دروب السماء،

والسماء اللانهائية

تعزف أبدا على أرغن النجوم الرائعة.

والهواء يهمس بعطر القرنفل

حكايات ألف ليلةٍ وليلة.

وأشجار النخيل والسرو

تتمايل على جانبي الطريق وتميس

غارقة في سبات لذيذ.

القافلة تسير الهوينا بدلال

على رنين الأجراس، دون لفتة إلى الوراء.

الطريق المجهولة تدعو أبا العلاء

بإغراءات لا تحصى ومداعبات.

- (سيري يا قافلتي دوماً ولا تقفي، سيري

حتى نهاية أيام عمري).

هكذا كان الشاعر الكبير أبو العلاء المعري

يناجي نفسه من أعماق الفؤاد.

- (سيري بنا إلى الفلوات المقفرة

إلى الأفق الزمردي الحر البعيد،

والبراري البكر المقدسة.

وانطلقي بلا كلل نحو الشمس،

واحرقي في قلبها قلبي.

آهٍ يا قبر أبي.. يا مهد الأمومة،

لن أقول لكما الوداع.

أيها السقف الأبوي،

يا ذكريات الطفولة،

إن روحي لقلقة أبداً مثلكما.

كم أخلصت في محبتي لأصحابي،... لكل الناس

الأقرباء... الغرباء.

أما الآن فقد غدت محبتي حيةً تلدغ،

وأصبح قلبي يغلي بسموم الكراهية.
أبغض كل ما أحببته في الأمس،
أبغض كل ما رأيته في سرائر الناس،
فقد أحصيت ألف كراهية واشمئزاز
في نفوسهم الفارغة المقرفة.
وأشد ما أبغضه بعد ألف بغض
هو الرياء، رياء النفس
مزين وجوه البشر
بهالة القدسية والطهر.
وأنت يا لسان الإنسان
يا حاجب جحيم النفوس
بأرج السماء ولونها،
بحجابها الصافي الشفاف.
ترى.. هل نطقت بكلمة صدق؟.
امضي يا قافلتي بشموخ
توغلي في كبد الصحراء اللاهبة الموحشة،
وحطي رحالك تحت الصخور النحاسية
قرب وحوش البراري.

ولأنصب خيمتي على جحور الأفاعي والعقارب،
فأنا أكثر أماناً هناك من قرب البشر،
ذوي الابتسامة الخداعة.
هنالك آمن لي من قرب الصديق.
آهٍ من ذلك الصديق،
كم وضعت رأسي على صدره بحنان.
ذلك الصدر الذي يحجب بغلالة الكذب
هاوية الضياع الأبدي.
ما دامت الشمس تصلي قمم سيناء الشامخة ناراً،
وتتحرك كثبان الرمال الصفر كالأمواج
فأنا راغب عن تحية الناس،
عازف عن لقمة مائدتهم.
أشارك كواسر البراري في الطعام
وأرد على تحية الضباع بالسلام.
فلأكن فريسة الوحوش،
ولتعصف بي هوج الرياح الصحراوية،
هكذا سيري دون إياب
يا قافلتي سيري،

حتى آخر أيام عمري...)
لفتة ونظرة أخيرة
ألقاهما المعري على بغداد الراقدة،
ثم أدار جبهته المتغضنة مشمئزاً
وطوق عنق بعيره مداعباً شعره الغزير بحنان،
وطبع على عينيه الصافيتين
قبلةً من شفتيه الحارتين.
ونفرت من أهداب عينيه
دمعتان حارقتان عصيتان.
كانت القافلة تتهادى
بوشاشات حلوة بين السهول الراقدة،
وهي تحث الخطى إلى الأمام نحو الصحراء،
نحو الشواطىء المجهولة البعيدة العذراء .

السورة الثانية

كانت القافلة تتلوى

بين صفوف شامخات النخيل،

مثيرة وراءها قافلة أخرى من الغبار،

تقودها السموم بأنفاسها القائظة.

- (سيري قدماً أيتها القافلة، ماذا تركنا وراءنا؟

لنمني نفوسنا شوقاً بالعودة إليه.)

هكذا كان يناجي نفسه الشاعر الكبير أبو العلاء المعري.

- (اتركنا هناك امرأة إليهة،

أم حباً سعيداً، أو حلماً غير متناه؟.

حثي خطاك ولا تقفي.

ما تركنا وراءنا إلا سلاسل وقيوداً

إلا رياء وغشاً وخداعاً.

والمرأة، ما هي...؟

إنها ماكرة خداعة،

عنكبة تمتص دماءك،

مغرورة أبداً في تفاهة فكرها،

تحب خبزك ولا تحبك.

قبلتها أكذوبة،

تعانق سواك وهي في أحضانك.

استسلم للبحر وأنت على حطام زورق،

ولا تستسلم ليمين المرأة،

لأنها داعرة شبقة، جحيم رائع الحسن،

ابليس ينطق بفمها إن تكلمت.

أنت حالم بالنجمة النائية،

والزنبقة الناصعة كأجنحة الملائكة،

تخالها بلسماً لجروحك،

وحلماً ذهبياً بين خطوب الحياة.

أنت تواق إلى أغنية النبعة،

تدعوك إليها من الشواطىء المضيئة،

أنت حالم بأنداء الخلود،

تسكب حلو العبرات على الصدر السماوي،

ولكن حب المرأة لا يطفىء ظمأ روحك الملتهبة،
إلا بالماء المالح، لتظمأ دوماً وأبداً.
أنت تلعق جسد المرأة الظافرة،
في سعير شهواتك، ولا ترتوي.
آهٍ يا جسد المرأة، إنك حية داعرة،
وعاء شيطاني للجرائم والآثام.
إنك بملذات اللحم المريرة
تجعل شمس الروح ظلاماً.
لقد غدوت أبغض الحب،
إنه قاسٍ كالموت، حارق أبداً،
يجرح خفية.
وأبغض ذلك السم الحلو،
فمن سكر به يغدو ذليلاً عبداً،
أو طاغياً ظالماً مستبداً.
أيها الحب، يا إرادة الطبيعة المعذبة
إنك روح غدرٍ لا تقهر ودسيسة .
أنت حشا الفتنة المسعورة،
ودماء الآلام وكابوس التجيع.

اكره في المرأة عناصر الشهوة،

وغو الجرائم دوماً بلا قيود،

وينبوعاً، يغرق العالم

بأوحال الشر فلا ينضب.

ومن جديد أكره المرأة وأبغض حبها،

أكره نفاق قبلاتها المريرة،

اهرب من مستنقع مضجعها،

أصب لعنتي على مخاضها،

مخاض الشراسة والعنف الأبديين،

يقذف العالم بسيل من جماعة الأفاعي،

يلدغ بعضها بعضاً ويفترس،

وتدنس النجوم بسموم شهواتها.

آثم، فاسق، من غدا أباً،

من دعا إلى الوجود من سعادة حضن العدم

الذرة البائسة ليضرم على هامتها

جحيم هذه الحياة.

(هذا جناه أبي عليّ   وما جنيت على أحد)

هذه وصيتي لتكتب على قبري،

إن وجدت لرمسي حفرة تحت السماء.

ما دام البحر يعانق شواطىء الحجاز الزمردية،

فأنا لن أعود أبداً إلى المرأة،

ولن يهزني الشوق إلى سحرها.

أداعب قتاد الفلاة القاسي وأقبله،

أضع رأسي على الصخور الملتهبة،

وأسكب على صدرها الحنون عبراتي.)

كانت القافلة تقيس الطريق الملتوية بترانيم ناعمة،

وتسيل بهدوء وارتياح نحو البعيد الأزرق الحالم.

أما الأجراس فكانت تنتحب،

وتسكب الدموع الرنانة قطرة فقطرة.

والقافلة كانت تبكي بدموع حلوة،

تبكي ما أحبه المعري وما تركه.

وكانت مزامير الأنسام الوادعة

تتغنى بالمواويل المطربة الحلوة،

بأغنيات الحب المكلوم والشوق الحزين،

والتوسلات الوادعة الحالمة.

وكان أبو العلاء غارقاً في تفكير كئيب.

كانت آلامه غير متناهية،
مثل طريقه الملتوية الممتدة إلى اللانهاية.
كانت طريقه اللامتناهية تحيكه بخطوطها
وهو يتألم بصمت ليلاً ونهاراً
ماداً بصره نحو النجوم المجهولة.
ونفسه مثقلة بالذكريات المرة الأليمة.
ما كان يلقي التفاتة على الطريق التي قطعها.
ما كان يحز الأسف في نفسه على ما ترك خلفه.
ما كان يلقي التحية على القوافل الرائحة والغادية،
ولا كان يرد على تحياتها.

السورة الثالثة

وقافلة أبي العلاء تسير الهوينا

كخرير الينبوع الجاري،

متناسقة الخطوات،

في غمرة أشعة القمر الوديع،

والبدر المنير كصدر حورية الجنان،

شامخ فتنة وسحراً،

كان يتستر حيناً بالغمام خجلاً،

وآخر يظهر ساطعاً بصفاء.

والأزاهير الفواحة كانت راقدةً

بأقراطها الماسية الفاتنة.

والأطيار بأجنحتها القوس قزحية

كانت تبث مناجاتها بأرق الهمسات،

والريح توشوش بعبير القرنفل

حكايات ألف ليلةٍ وليلة.

وأشجار النخيل والسرو الغارقة في نوم لذيذ،

كانت تتمايل على طرفي الطريق وتميس.

كان أبو العلاء يتكلم بصمتٍ،

وأذنه صاغية إلى أحاديث الريح...

- (والدنيا، كأنها حكاية ساحرة عجيبة،

لا بداية لها ولا نهاية.

ترى من حاك هذه الحكاية الرائعة،

حاكها بالنجوم وبآلاف المعجزات.

من تفنن في روايتها بعديد الأشكال،

وسردها بهذه البراعة والسحر دون وهنٍ وكلل.

أم جاءت وأخرى بادت،

وما أدرك أمرؤ سر مغزاها.

الشعراء وحدهم أدركوا منها النزر اليسير،

ورددوا منها خوالد الألفاظ.

لم يسمع أحد عن بدايتها

ولن يسمع أحد عن نهايتها.

كل رنةٍ منها تعمر عصوراً،

ولا بداية لكل رنةٍ منها ولا نهاية.
ولكن لأجل كل وليد
تروى الحكاية الرائعة هذه من جديد.
تبدأ بمولد كل إنسان وتنتهي بموته.
الحياة حلم والدنيا حكاية؟.
الأمم والأجيال قوافل تمر
وهي تمخر عباب هذه الحكاية نحو اللحد،
حاملةً معها أعذب الأحلام.
يا لكم من أناس عميت أبصارهم
خرست ألسنتهم، وتلاشت أحلامهم.
غدوتم تختطفون اللقمة من حلوق بعضكم،
دون الاستماع إلى هذه الحكاية السنية.
حولتم الدنيا إلى جهنم رهيبة.
ما شرائعكم إلا نير وسياط
ومتاهة ضياع في شباك عنكبوت مسعورة،
بسمومها تقتلون تغريدة البلابل وأحلام الورود.
أيها التعساء إن افئدتكم الطافحة اثما،
وأفعالكم الشريرة ستغدو هباباً.

تمحو يد الزمان آثاركم الدنسة،
وتكنسها دون مبالاة.
وتقعقع ريح العدم فوق عظامكم وقبوركم.
وما أعجزكم عن التمتع بهذا الحلم الرائع،
والحكاية الذهبية هذه.)
كانت قوافل جواهر النجوم
هائمة في طرقات السماء،
والسماء اللامتناهية كلها
ترن بدقات النجوم الصافية المشتعلة أبداً.
والدنيا كانت مغمورة مسحورة
بعديد الأنغام السماوية الخالدة،
وفي الأحلام المنطلقة نحو السماء.
كان المعري يستمع بروحه إلى الأغنيات السامية.
- (امضي أيتها القافلة،
واغزلي رناتك الناعمة
مع أنغام السماء المنيرة.
حملي الريح آلامي وأشجاني،
وامضي قدماً في حضن أمومة الطبيعة،

ولا تلتفتي إلى الوراء.
امضي بي برداء نوراني
إلى ضفاف الغربة البعيدة،
إلى ضفاف العزلة النائية.
أيتها العزلة المقدسة
أنت واحتي، أنت ينبوع الأحلام المنعش.
يا سماء الصمت، ناجيني بلسان نجومك،
وواسي جروحي،
واعطفي على روحي المنبوذة من البشر،
روحي الجريحة بلسعات الناس.
ففي نفسي يتأجج شوق ظامىء أبداً،
وقلب حنون يبكي أبداً.
ففي روحي حلم جميل.
وعبرات مقدسة وحب بلا حدود.
إن نفسي حرة أبية،
لا تخضع لسلطان أية قوة،
لا تخضع لأية شريعة وحدود،
لأي قدر ولأي خير وشر، ولأية دينونة.

لا مكان لأية وصاية علي،

ولا لأي حق فوق هامتي،

فكل ما يخرج عن إرادتي

سجن وعبودية وطغيان.

أريد أن أكون حراً مطلقاً بلا حدود،

بلا سلطان علي بل بلا ربٍ.

إن روحي لتواقة للحرية العظمى فقط،

للحرية الخالدة اللامتناهية.)

كانت القافلة تنسج السير قدماً،

تظللها إشعاعات النجوم المنطلقة حرة

بابتسامات الطفولة.

تلك العيون الجوهرية المشعة أبداً.

وكانت تناديه أشعة غمضات النجوم الذهبية

بشوق وتلهف.

وتملأ نفسه بالرنين العلوي،

المنبعث من آلاف الأجراس السماوية البلورية،

في ليل ساج صافي الأديم.

كانت الطريق تلتمع لمعاناً سحرياً في البعيد الفيروزي.

والقافلة تسير متمايلة متأرجحة.

نحو البعيد الفيروزي الهادىء....

السورة الرابعة

الليل كخفاش أسود هائل رهيب
نشر أجنحته على الخافقين،
هبطت هذه الأجنحة اللامحدودة،
وغطت الطريق والقافلة، والسهول الشاسعة عن الأعين.
واكفهرت السماء بالغيوم الكئيبة من الأفق إلى الأفق.
فلا النجوم تتلألأ ولا القمر يسطع.
والظلام كأنه قد التحف بالظلام.
والرياح العاصفة كالخيول الجامحة،
كانت منطلقةً تزحف بوحشية رهيبة،
تثير خلفها أمواج أتربة السهول المحترقة وغبارها،
وتمزجها بكتل الغيوم.
وهي تفرقع، وتدوي بقشعريرة الموت،
وتتصاعد صرخاتها بآلاف الأصوات،

كأنها وحوش كاسرة تتلوى من الجراح،
تزأر، تئن، بفم الرياح.
كانت الرياح تتلوى حزينة وتنشج،
في الأودية الضيقة وغابات النخيل العذراء،
كأنها قلب يسكب أيأس العبرات...
- (انطلقي أيتها القافلة نحو الرياح،
وسيري دون وجل حتى آخر حافة العالم).
هكذا كان يناجي نفسه في أعماق فؤاده
الشاعر الكبير أبو العلاء المعري.
- (زمجري أيتها الرياح الهائجة فوق رأسي،
واقصفي أيتها العواصف الهوجاء
وتفجري فوق هامتي،
أقف أمامك متحدياً دون جبن أو وجل،
حاسر الجبين، فاصفعيه، اصفعيه.
أنا لن أعود إلى مدن الدنس والطاعون
حيث صخب الشهوات في غليان،
إلى مدن الأشلاء حيث الإنسان الطاغي
يمزق نظيره الإنسان دوماً.

ويحك يا نفسي إنك بلا مأوى،

لن تعودي إلى دارك، لأنك أطفأت فيها الموقد الأبوي.

الويل لمن يملك داراً ومأوى،

إنه كالكلب مربوط بعتبتها.

ازحفي أيتها الرياح على دار أبي،

واهدمي بنيانها، دمري أسسها،

وانثري غبارها في أطراف العالم.

فما داري الآن إلا هذه الطريق اللامتناهية.

العزلة هي الآن حبي الوحيد.

السماء المزدانة بالنجوم هي خبائي الأبوي.

والقافلة هي رفيقي الآن.

وما راحتي إلا طريقي هذه، الخالية من المحطات.

أنت أيتها الطريق الساحرة المجهولة أبداً،

ويا وطني الجديد الفاتن دوماً،

خذيني معك، خذي قلبي المنتحب أبداً،

إلى هناك حيث لا أثر للإنسان.

عليك بالحذر من الناس.

فكن مستعداً دوماً، ولا ترفع يدك عن قبضة سيفك،

لئلا يمزقك صديقك، أو عدوك،
ولئلا يفترسا لحمك.
أبعديني عن الأصدقاء أيتها القافلة،
فهم كالبعوض الجائعة،
إن كنت موسراً،
هوموا حولك، وتبعوك يمتصون دمك.
وإن كنت معسراً،
نأوا عنك ونسوك.
من كان سيحيك لي عذاب الجراح
لولا الصديق ولولا الرفيق.
بقبلهم فتحوا أبواب قلبي
وبقبلهم لسعوا فؤادي.
ألف خداع وألف نفاق
تنبع من قبلات الناس والرفاق،
يتصيدون بها أسرار قلبك.
ثم يستعبدونك إلى الأبد.
ما الرفيق؟ وما الصديق ؟
إنهما لا يضمران لك إلا الغدر والخداع.

ولا ينبعث من نفسيهما إلا النشر والنذالة.
ماتت في نفسي سماء ملئت حباً.
ماتت في نفسي شمس مشرقة ومحبة وإيمان.
والصديق؟ ما الصديق؟! هو حاسدك في يسرك،
لا ينفك يتعقب خطواتك، فهو شحيح نمام.
لا تهاجمك الكلاب الصديقة ولا تنبح،
ولكن الذين يهاجمونك هم معارفك من الناس.)
كانت الرياح، كالجان المشوهة،
تطلق ضحكات الهزء والسخرية في وجه المعري.
تصفق بسخرية، وتشد عمامته بقوة.
تتعلق بأذيال عباءته وأطرافها.
وهي تقذف قبضاتٍ من الغبار في عينيه،
قاطعة بها خيط أفكاره ومناجاته.

السورة الخامسة

وكانت القافلة تشق بثقة وثبات

حجب زوابع تثيرها رقصات شراس الجن،

منطلقة قدماً دون خوف ووجل،

على شجو رنين الأجراس.

- (ما الرفيق؟... كان يردد المعري

بحدة وغضبٍ في قرارة نفسه.

إنه أفعى سوداء في حضنك، تدنس مضجعك...

طيري يا قافلتي، أيها الرفيق الوفي،

ولا تقفي حيثما حللت، بل انطلقي، انطلقي من جديد،

ولا تحطي رحالك في أية محطات.

إيه يا طريقي الهادية، خذيني بعيداً.

ضيعيني كي لا يعلم الناس بعذابي.

وماذا تركنا وراءنا ليدعونا مخادعاً،

بالعودة إليه من جديد.

أمجداً تركنا هناك؟ أم كنزاً؟ أم شرائع وسلطاناً...

طيري أيتها القافلة وابتعدي عن البشر جميعاً.

والمجد؟ ما المجد، يرفعك الناس اليوم إلى ذرى القرون،

وغدا يلقون بك أرضاً لتسحق تحت السنابك.

وما الشرف؟ واحترام الناس،

ما احترموك إلا خشيةً من ذهبك.

فالويل لك إن سقطت، إذ يغدو غبار نعليك

جباراً يصليك بالضربات.

وما المال؟، إنه سلاح بيد المخبول ليتحكم برقاب الناس،

إنه العبقرية، إنه الحب.

إنه الدماء الممتصة من آلاف الآلاف.

إنه لحم الأموات ودموع اليتامى.

ما الجمهور؟، أحمق كبير يضطهد النفوس، عنصر الشر،

فيصل ذو حدين، مرساة الطغيان،

وحش رهيب عند الهيجان.

ما الطائفية؟، جيش للعدو،

والفرد فيها عبد بلا قيود

وهل صبرت؟، ومتى، على تسامي الروح وإشراقة الأفكار السامية.

إيه أيتها الطائفية المقرفة، يا حلقةً خانقة.

الخير والشر فيك عصا خيزرانةٍ رهيبة.

إنك مقص هائل يجز الكل بالتساوي دون تمييز.

لقد غدوت أبغض الوطن – ويا أسفي ما غدوت –،

إنه مرعى غناء للموسرين الباذخين،

فحارث تربته الدامية كادح

يقرض صلد الحجر عوض الخبز.

وما الشرائع؟، – إنها سيف البغي البتار،

بيد الطغاة الأقوياء، يباركه الناس،

مسلط أبداً على رقاب الضعفاء،

يذبح المسكين ويحمي القوي.

إنني لأبغض كل البغض الحق وجميع الشرائع.

فكم مغتصبٍ باسم الحق الممقوت قد اغتصب.

وكم قاتلٍ باسم القوانين المقرفة قد ذبح.

ها إني أبغض سبعاً، السلطة، ملتهمة الأجيال،

السلطة المستغلة دون شبعٍ، الطفيلية الجائعة أبداً،

والباعثة الخالدة للحروب.
إنها أكبر جلادٍ وأعظم لص،
في العصور الغابرة وفي العصور الآتية.
تخلف وراءها وحيثما تمر جرائم ومجازر،
تطرح الهلع من رحمها. إنها قطيع الحقد.
إنها متربعة فوق صدري كالوحش،
تشد على جبهتي بقبضتها الضخمة.
تضع القيود على كل خطوة من خطواتي،
والأقفال على فكري ولساني.
إنها تحطم كواهلنا دوماً،
وتسحق الإنسان في كل مكان.
وتشيد باسم الحق الباغي
اهرامات من آلاف الجماجم.
والسلطة، هي كل شيء
- إنها الحق والقانون والعدالة.
إنها الضمير بالذات، إنها الخير والشر.
وأما أنت، فإنك لحد وفناء.
إنني ألعن السلطة، فإنها ضبع كاسر بألف مخلب.

كل خطوةٍ من خطواتها حصيد دماء،
حيث يسحق الطفل والشيخ.
فيا أيها الناس، إنكم جبناء وعاجزون، إنكم لعبيد.
من وضع السيف في يد أقرانك.
ومن أعطاه حق الانتقام والتحكم،
وذبح أمثاله من البشر.
خذيني أيتها القافلة، سلّميني إلى الأفاعي،
وادفني قلبي المسكين تحت الرمال.
خذيني وانقذيني من السلطة،
حرريني من ربقة رعايتها الظالمة.)
كانت البروق الجامحة تمزق كتائب السحب،
بسيف النار،
وتتحطم في انطلاقها على أطراف الجبال البيض النائية.
وكانت الزوابع تزمجر وتزأر.
وأشجار النخيل والسرو تتصادم تدوي.
والقافلة تعدو وتطير هادمةً الجسور والمواقع.
كانت تعدو وتطير بأنغام رتيبة،
مثيرةً سحب الغبار حاجبةً بها الطرق والمسالك.

كأنها كانت تهرب من شر السلطة وقبضتها الحاقدة،
كيلا تستطيع اللحاق بها.

السورة السادسة

وكانت أرائج الزعتر والنرجس تعطر الجو بشدة
في لظى أشعة شمس الظهيرة.
والقافلة تسير متباطئةً منهوكة الأوصال تتصبب عرقاً،
وهي تائهة في بحر الغبار.
- (طيري أيتها القافلة، وأنت تشقين الأعاصير،
والعواصف الهوجاء ثم غوصي في أحضان الرمال.)
هكذا كان الشاعر الكبير أبو العلاء يحدث نفسه المحتدة. -
- (لتعصف بي رياح الصحراء اللافحة،
ولتمح آثاري من وجه الرمال،
حتى لا يهتدي الناس إلى مكاني أبداً،
ولئلا يستنشقوا الهواء الذي أتنفسه.
ها إني الأسود الشقر،
وهي تحدق في عيني من وراء التلال الصفر.

إنني أراها والريح تخطف الشرارات من لبدها الذهبية.
فأناديها - تعالي، ها إني هنا لست بالمنهزم.
تعالي وانهشي قلبي المكلوم.
أنا لا أريد الرجوع إلى الناس أبداً.
فلن أقرع باب الإنسان الغادر.
والناس، ما الناس ؟... أبالسة مقنعة.
مزودون بأنياب ومخالب خافية.
لهم سنابك. إنهم حيوانات مجترة.
وما ألسنتهم إلاّ حراب مسمومة.
ومن هم الناس...؟ إنهم قطعان من الثعالب
أنانيون فارغون، نكارون ووشاة.
يبتهجون لشقوتك ويلعقون الدماء مثل الكواسر.
إنهم وحوش تفتك بالأطفال، فهم جلادون، جلادون.
في فقرهم متملقون، يبيعون كل غال وثمين.
وفي بؤسهم جبناء وخونة.
في غناهم سفهاء لؤماء وحقودون متعجرفون.
أصحاب الفضائل فيهم ضحايا اللؤماء،
وذوو الشر واللؤم ينكلون بأصحاب الفضيلة،

في هذه الدنيا الفاسدة

ولا ينمو إلا الزيوان في حقل الحياة.

ها إني أصب لعنتي عليكم أيها الناس في القصي.

وعلى خيركم وشركم، وعلى دياناتكم[1].

إنها ليست إلا سلاسل تشيد لكم سجون العبودية.

ويا أيتها الدنيا الفاجرة،

فالذهب الجبار في رحابك يجعل اللص شريفاً أميناً،

والأبله عبقرياً، والجبان مقداماً، والقبيح جميلاً والمومس عذراء.

إيه يا دنيا البشر، إنك حمام الدماء.

فيك الضعيف مذنب والقوي محق عادل.

حيث لا شيء أحقر من الإنسان،

إذ لا يفعل شيئاً في هذه الدنيا الرقطاء

إلا في سبيل المال، ومن أجل المنفعة فقط،

إنه عبد المنفعة دوماً وأبداً.

إنه اليد التي تؤله المذابح.

هو ذا الإنسان دوماً في صورة الله،

لكن الحقيقة إنه لقيط الشيطان.

(1) يقصد الشاعر عبادة المال (المترجم).

إن ما يرتكبه الإنسان من المعاصي في يوم واحد،

لهو أعظم بكثير من تعداد خطوات قافلتي اللامحدودة.

ها إني أرسل كلمتي وأقول لمن في الشرق،

ولمن في الغرب وفي الشمال والجنوب.

حيث الرياح المتعاكسة تستمع إلى كلمتي الحقة.

خذوا كلمتي النارية وأذيعوها بقوة،

ليسمعها البشر في العوالم،

من أقاصي البحار إلى أقاصيها.

ليس أحقر من الإنسان الشرس ولا أظلم منه

إلا الإنسان عينه.

ما دامت النجوم سرمدية اللألاء

في سماء صمت الصحراء،

ونجود الرمال تتلوى وتئن كالأفاعي،

اهربي أيتها القافلة.

من دنس وقذارة حفلات البغاء وفسقها.

من ساحات الخداع والاستغلال،

ومن أسواق التجارة النجسة.

اهربي من البشر، اهربي من الانتقام،

ومن عدل الناس الدامي.
اهربي من المرأة، من الحب، من الصديق،
ومن ظل الإنسان. اهربي حتى يدركك اللهاث.
سيري أيتها القافلة ساحقةً بأقدامك كل شريعة وكل حق.
احجبي الشر بنقع دروبك والخير والسلطة.
لأكن فريسة الأسود والنمور،
ولتعصف بي الرياح اللاهبة.
هكذا سيري يا قافلتي حتى آخر أيام عمري،
واذهبي، اذهبي دون رجعة، فلا تعودي...)
كانت الجمال تنطلق كالسهام شادةً أقواس أعناقها،
تاركةً وراءها غباراً لا نهاية لها.
عبر سهول شوتها الشمس كانت تنطلق نحو المجهول والبعاد.
وسحب التراب تغطي المدن والقرى والسهول اللامحدودة.
فكأن المعري كان يسرع في الهرب خائفاً، ودون توقف.
وكأن كلاً من المرأة، والشريعة، والطائفية
كانت تلاحقه خطوة بخطوة.
والقافلة تتقدم بسرعة دون التفاتة لما حولها،
ودون أية رغبة في العودة.

فكانت تمر بالأهرامات والمدن الكبرى،
المدن المليئة بضجيج الخبز والشهوات.
كانت تعدو عجلةً وهي تمر بالقرى المتحجرة من الجهل قروناً.
تعدو غائصة في الآفاق النائية،
بشوقٍ جامحٍ للنجوم الذهبية.
كانت القافلة الجامحة تلتهم الطرق ليلاً ونهاراً.
وأبو العلاء يفكر غاضباً، بروح مضطربة، مقطب الجبين.
وقافلة أفكاره جامحة .كصقورٍ ضربتها الزوابع.
كانت تنطلق مضطربة مشتتة،
وهي تأمل بالوصول إلى محطة منورة.
كان أبو العلاء يبكي بلا دموع.
وما كان لأحزانه قرار ولا نهاية،
إنهامثل طريقه التي تتلوى كحية لا نهاية لها.
لم يكن يلقي التفاتةً على الطرق التي قطعها،
ولم يأسف لما ترك خلفه ولما مر به.
ما كان يرد على سلام القوافل الغادية والذاهبة،
ولا كان يلقي عليها السلام.

السورة السابعة

حطت قافلة المعري رحالها منهوكة القوى،

وأناخت جمالها عند مدخل الصحراء العربية الكبرى...

كانت الآفاق تشتعل على شواطئها الحرة الخالية.

كان الظلام يلملم أطراف ثوبه المخملي،

والسماء تموج بألسنة اللهيب الوردية.

وجلس أبو العلاء وحيداً،

مسنداً رأسه إلى الصخور الياقوتية،

ونظراته تتغلغل في البعيد السحري وتغوص.

وقد سكنت روحه الصافية السموحة.

- (آهٍ... كم أنا حر، لا قيود ولا أغلال.

أقادرة هذه الصحراء الكبرى على احتواء حريتي اللامتناهية،

واحتضانها، وإحاطتها بأطرافها؟.

فلا رأتني عين إنسان،

ولا امتدت إلي سواعد البشر.

فيا أيتها الحرية، يا عطر الورود المنورة،

الزاهية في جنان الفردوس.

كللي هامتي بطاقات ورودك اليانعة،

أوقدي في روحي أنوار مشاعلك.

أيتها الحرية، إنك القرآن الأزلي،

لبلابل الفردوس النورانية.

يا وعورةً مجيدةً، ويا دنيا الحكمة الذهبية،

إليك مني ألف تحية.

بوركت يا باديةً طاهرة الذيل،

حيث لا يعذب الإنسان أخاه الإنسان.

انتشري بلا حد، وافرشي بحار رمالك الصفراء على الأمم.

واخفي بغطائك كل الناس، غطي القصور والأكواخ،

المدن والقرى، الأسواق والقلاع.

لتسد الحرية العالم مع عواصفك التنينية.

ولتنور الشمس السامية الحرية في كل أرجاء الدنيا

بأشعتها الذهبية.)

طلعت الشمس زاهية النور،

بألف أعجوبة خلابة السحر،
مزينةً بحلل السندس والورد.
وتحت أنوار مشاعل الشمس البهية،
أخذت أطراف الصحراء تتسع.
وغدت تسطع بلألاء وتلتمع
كجلد أسد هائل ذهبي الشعر.
– (السلام عليك أيتها الشمس، ألف شكرٍ لك،
يا ينبوع الحياة، إنك لأعظم من الآلهة.
يا أمي الخالدة، يا حضن الأمومة،
إنك الطاهرة الخيرة، إنك القديسة الوحيدة.
يا كأس الكون التي لا قرار لها.
يا ذرى السكر الذهبية والسعادة.
يا خمرة البهجة والسحر الملتهب،
يا محيطاً بلا قرار.
أيتها الشمس الخيرة، يا أعظم مهرجانٍ للكون،
ها إني أقدم إليك روحي زهرةً عطشة،
فاسكبي فيها خمرتك التي لا تروي الظمأ.
اسكريني بسعادتك بحكمتك، اسكريني بخلودك.

امنحيني نسيان الماضي بلا يقظةٍ
في بحر أحلامك المنورة العطرة.
اسكريني بخمرتك الخالدة، اثمليني،
حتى أنسى الإنسان بكذبه وخداعه.
وأنسى إلى الأبد شروره وأحزانه.
أسكريني بسموك وعظمتك،
أسكريني بأنوار الإعجاب.
يا بطلاً لا يقهر أمام جحافل الظلام.
يا أم فصول الربيع وبحر البهجة.
يا وحيدة الطاهرات، يا حبي الوحيد،
أنت القديسة الفريدة، القديسة الوحيدة،
يا حضن الأمومة.
حنانك أبدي خالد، ياقاهرة الموت،
يا أعجوبة العجائب وأجمل الجميلات.
أحرقيني بنار حبك، فأنا أحبك أحبك.
أسبلي علي جدائلك الذهبية وداعبيني بحنان،
وادمي شفتي بلسعات قبلاتك اللاهبة.
وافتحي لي أحضانك النورانية

التي تنشر السعادة من حولنا،

طائر إليك بلظى الهوى.

لتصب أذني بالصمم لئلا أسمع ضجيج العالم أبداً.

ولتكف عيناي عن رؤية الدنيا إلى الأبد،

لئلا ألتفت إلى الخلف لرؤية الناس.

انطلقي نحو الشمس أيتها القافلة النبيلة،

وطيري إليها قروناً وعصوراً.

لأخلد في حضنها النوراني،

ولأصبح شمساً ملتهبة مثلها.

آهٍ أيتها الشمس الأم.

اخلعي على أكتافي رداءك الذهبي الرائع،

حتى أنطلق نحوك وأنا ثمل نشوان بحبك،

بانطلاقة النصر عبر أمجادك النورانية.

يا أعظم من الآلهة،يا حبي الأوحد.

إنك أمي الوحيدة وحضن الأمومة الفريدة.

أيتها الطاهرة، أيتها القديسة،

يا أعجوبة الأعاجيب ويا ربة الحسن والكمال.

السورة الأخيرة

الجمال كزوارق ذهبيةٍ
كانت تشق عباب الأمواج الملتهبة في بحر الصحراء.
وتنطلق بسرعة إلى الآفاق المشتعلة بالنور.
ما كانت أية رياح سمومٍ تستطيع اللحاق بها،
بأجنحتها النافثة قيظاً ولظى.
ولا سهم الأعرابي في انطلاقته،
كان قادراً على الوصول إلى تحليقها.
كانت قصائد الأشواق الملتهبة
تجلب الأنسام العليلة من الواحات.
كانت الينابيع تشدو بأحلام مهجها العذراء.
وحوريات النور في الحكايات
تبعث إليها بالقبل والتحيات،
على أنغام رقصات أشجار النخيل الحلوة،

وتدعوها إلى موعد خفي.
لكن المعري كان يرفض أن ينصت
تحيات الحب، وهمساته الحلوة.
كان ينطلق نحو الشمس بلا هوادة،
وهو مشرق المحيا كالشمس.
أمّا السراب فكان يحلق بروح المعري المسحورة،
برؤى جديدة لآلاف الأوهام والفتون،
على الأجنحة الذهبية للأحلام النورانية،
والجمال سائبة العقل،
تنطلق بقوة وعناد وتطير،
محلقة في الأجواء كانطلاقة البرق.
كأن جنوناً مسها وأطار صوابها.
الجمال تشتعل بحبور وبهجة
تحت أشعة الشمس المتراقصة.
ورنات الأجراس المتعالية تتسارع،
وتنطلق حرةً في أنوارٍ بهيجة.
وكان أبو العلاء يحدق في الشمس كالنسر،
يحلق طائراً دون هوادة.

وروحه ثملة بالنور، مضاءة بمشاعل السعادة.
والصحراء وحدها كانت تمتد من ورائه
عارية في أحضان النور، وليس لها حد،
وفوق رأسه كانت الشمس تميس،
ناشرةً جدائلها الياقوتية بلا نهاية.
والشاعر الكبير أبو العلاء ينطلق
في الأجواء، ويحلق مظفراً شامخاً،
وعلى كتفيه يموج الرداء الأرجواني بلألائه،
وهو منطلق نحو الشمس،
نحو الشمس الخالدة الأزلية...

عودة أبي العلاء المعري

.. وعم النبأ وانتشر الخبر، في أسماع البشر،
في المدن والأحياء، وفي كل الأرجاء،
أن عاد أبو العلاء، عاد أبو العلاء،
من شواطىء الغربة إلى ربوع الوطن الغناء.
إنّا عرفناه، إنّا عرفناه.
هكذا قال من رآه،
هكذا قال الراؤون وهم بكل تصميم يؤكدون.
لقد مرت السنون، عندما هرب منا خفية.
رأيناه منهوكاً تحت أثقال السنين،
يحمل البسمة في عين، وفي الأخرى دمعتين.
لكن كان في وسطه سيف، وفي خطواته مضاء،
وفي جبينه العريق إشراقة وصفاء.
وأناس آخرون، يسرعون، يتراكضون،

من شارع إلى شارع وهم يتصايحون،
إن عاد المعري من شواطىء الغربة،
ها قد عاد... قد عاد...

بعض ماقيل في اسحاقيان وأعماله

- قال الكساندر بلوك الشاعر والناقد الروسي الكبير سنة 1916: (... اسحاقيان شاعر من الدرجة الأولى، ربما تفتقر اليوم أوربا كلها إلى عبقرية ناصعة كعبقرية اسحاقيان).

- قال الأديب الروسي فاليري بروسوف في كتابه « الشعر في أرمينيا» (الشعراء هوانيس هوانسيان وهوانيس طومانيان واويديك اسحاقيان يشكلون أسطع نجوم في سماء الأدب الأرمني، وإن طرق تاريخ ذلك الأدب تمر من خلال الأعمال الأدبية لهؤلاء الشعراء) وقال في ملحمة المعري: (يبرز هنا اسحاقيان واحداً من شعراء أوربا، واضعاً نصب عينيه تلك المهمات نفسها أو مثيلاتها التي يسعى إلى حلها أيضاً الشعراء الوجدانيون للشعوب الأخرى، من فرنسيين، وألمان، وروس... ويمكن الحكم عن طريق هذه الأشعار: إن أي أستاذ كبير يمتلكه الأدب الأرمني في شخصية اسحاقيان).

- وقال س.م. باوران، البروفسور في جامعة اوكسفورد في 8 أيلول من عام 1946: (كنت أجهل كل شيء عن شعر اسحاقيان حتى

الآن. لقد أصبح شعره اكتشافاً كبيراً بالنسبة إلي. إن اسحاقيان اليوم واحد من أعظم الشعراء الأحياء في العالم، لقد ترك في نفسي انطباعاً كبيراً بعمق موهبته وقوتها).

- قال الأديب الأرمني روبين ظارطاريان في ملحمة المعري: (تشكل ملحمة المعري أقوى صفحات الشعر الوجداني الأرمني، ففيها جمال عجيب للصور والألوان، ولعمق الإحساس بموسيقا رائعة، يمكننا أن نقول : أنها تفتح بداية عصر جديد أمام الشعر الأرمني الشرقي).

- الشاعر الفرنسي الكبير لوي أراغون ذكر اسم اسحاقيان بين الشسعراء العالميين. أمثال أبولينير وايلوار وريلكه ولوركا ومايا كوفسكي ويسينين وتشاريتس، عندما تكلم عن الشعر في القرن العشرين.

- وقال ايليا اهرنبورغ: (ينتسب اسحاقيان الى طبقة اولئك الشعراء النادرين، ومن حق كل أدب، بل وحتى أغنى أدب في العالم، أن يفتخر به. ان شعره سيظل حياً على مر القرون).

- وقال الشاعر الأذربيجاني ميرزا ابراهيموف: (كان اسحاقيان فيلسوفاً طيباً في خيالي وحكيماً خيراً، وكان وجهه المعبر يذكرني بسقراط الحكيم. لقد اقتنعت من النظرة الأولى إن الخيال والحقيقة كانا يجسدان بعضهما تجسيداً حقاً).

- أديب من أوروغواي، خيسوالتو سوساً قال: (إن الشاعر يأسر الإنسان دوماً، ولكن رهافة فكر اسحاقيان وعمقه ليهزان الإنسان).

- الأديب الروسي نيكولاي تيخونوف: (إن الشاعر اسحاقيان

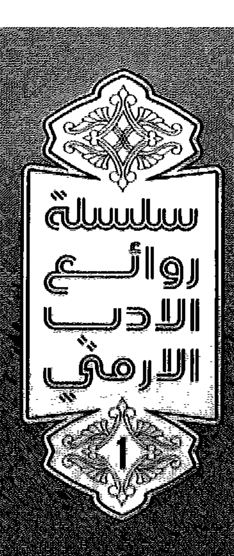
يتغلغل في المجتمع الاشتراكي، ليس كدليل بل كبنّاء، ليس كمؤيد بل كعامل فعال للثقافة السوفياتية).

- ومكسيم ريلسكي، قال: (حقاً إنه جدير بالإعجاب، هذا الحب الصادق، والتقدير الحق، اللذان يحتضنان اسم اسحاقيان وشخصه في وطنه... إنه وارث أمجاد الشعر الأرمني الكلاسيكي الحق، والدافع لاستمراره. وفي نفس الوقت له طابعه الخاص. إنه واضح الأحاسيس، جلي التفكير والمعاصرة).



فهرست المحتويات




سلسلة
روائـــع
الأدب
الأرمني
1

